أساطير الشياطين والبشر في الحضارة اليابانية

كوايدان

لافكاديو هيرن

ترجمة:

فيروز النمر

ضياء
t.me/twinkling4

Kwaidan

Stories and Studies of Strange Things

كوايدان

أساطير الشياطين والبشر في الحضارة اليابانية

تأليف

لافكاديو هيرن

Lafcadio Hearn

ترجمة

فيروز النمر

٢٧٠٦٧٥٥٨٨١

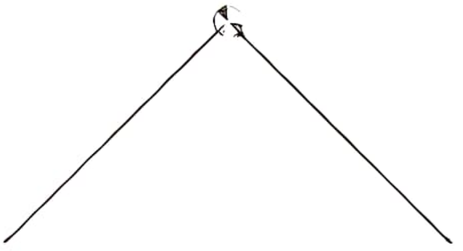

http://elrasm-blkalemat.com	
FB.com/elrasm.blkalemaat	
Instagram.com/elrsmbkalemat	
01061419555	
http://elrasm-blkalemat.com	

عنوان الكتاب:	كوايدان (أساطير الشياطين والبشر في الحضارة اليابانية). Kwaidan (Stories and Studies of Strange Things)
المؤلف:	لافكاديو هيرن.
المترجم:	فيروز النمر.
الطبعة الأولى:	٢٠٢٣.
المراجعة اللغوية والإخراج الداخلي:	Dr.Righ
تصميم الغلاف:	حسن العربي
رقم الإيداع:	2023/20950
الترقيم الدولي:	978-97786781-8-5

جميع الحقوق محفوظة للناشِر©

وأي اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية يُعرِّض صاحبه للمُساءلة القانونية، والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالكاتب فقط لا غير.

٢٧٠٦٧٥٥٨٨١

جميع الحقوق محفوظة لدا: مكتبة ضَاد، الإلكترونية.©

تمّ تجهيز هذه النسخة بواسطة:

أشرف غالب

مقدمة

يتزامن نشر (لافكاديو هيرن) لجديد مجلداته الرائعة عن اليابان مع الشهر ذاته الذي يترقب فيه العالم أخبار سفن الحرب اليابانية.

أيًا ما ستكون نتيجة الصراع الحالي بين روسيا واليابان، فإن أهميته تكمن في حقيقة أن دولة من الشرق تتسلح بإرادة وسلاح غربيين لتناطح إحدى قوى الغرب العظمى. ولأن أحدًا لم يؤت الحكمة الكافية للتنبؤ بنتائج صراع كهذا على الحضارة الإنسانية، فلا نملك شيئًا من الأمر إلا أن نعلق آمالنا ومخاوفنا على سيكولوچية الشعبين وخصائصهما العرقية المشتركة، لا قضاياهما السياسية والإحصائية المعقدة المتعلقة بحربهما الحالية.

لقد قدم الشعب الروسي للعالم أدباء أسروا الجمهور الأوروبي على مدى الأجيال؛ أما اليابان على الجانب الآخر فلم يخرج منها أدباء معترف بهم على نطق عالمية واسعة مثل (تورغينيف) أو (تولستوي). كانت اليابان بحاجة مترجم إلى أن أتى (لافكاديو هيرن)؛ المترجم الموهوب ذو الرؤية العميقة والعاطفة الحقيقية، الذي ترجم الثقافة اليابانية إلى لغتنا الغربية خير ترجمة؛ فقدم أروع الأعمال الأدبية بأسلوب من أوضح ما يكون. ولعل أكثر ما ساعده في ذلك-إلى جانب ذهنه المرن الممتزج بخياله الشاعري- إقامته في اليابان لسنوات طوال رأى

فيهن غرائب وخوارق، وقدمها بأسلوب استثنائي. إن كتبه التي أسرت القراء الأمريكيين لم تدع جانبًا من الحياة اليابانية المعاصرة، ولا قضية من القضايا الاجتماعية والسياسية والعسكرية المتعلقة بالصراع الحالي مع روسيا إلا وأوضحته على الشاكلة المثلى.

يصف الكاتب كتابه (كوايدان) بأنه "قصص ودراسات لأشياء غريبة"، والحقيقة أن محتوى الكتاب يفتح مجالًا لمئات العناوين والتوصيفات، لكنها ستدور جميعًا في النهاية حول الغرابة.

بينما تقرأ عناوين القصص في الفهرس، تكاد تسمع صوت جرس معبد بوذي يدق من مكان بعيد. بعض وقائع تلك القصص وإن دارت في أزمان سحيقة؛ إلا أنها قادرة على إنارة قلوب وعقول الرجال الذين تكتظ بهم أسطح الطرادات المدرعة اليابانية. والبعض الآخر يدور حول النساء والأطفال؛ العذارى والزوجات اليابانيات، والفتية والفتيات ذوي العيون الحادة والشعر الأسود؛ العناصر الساحرة التي تحاك منها أروع قصص الخيال. على أن الغرابة هي سمت أولئك أيضًا؛ فهم مثلنا وليسوا بمثلنا في الآن ذاته، تمامًا كسماء تلك القصص وتلالها وزهورها التي تختلف عن تلك التي نعرفها. ورغم ذلك رسم السيد (هيرن) بسحره الذي لا يجيده من الكتاب المعاصرين سواه لوحات مذهلة من كلمات، نتلامس رغم ما فيها من خيال مع روحانيات الحياة.

في مقال تحليلي جميل نشر في مجلة (أتلانتك مونثلي) في فبراير 1903، كتب (بول إلمر مور) عن سحر السيد (هيرن)؛ واصفًا فنه بأنه "التقاء ثلاثة طرق". الروح الدينية في الهند-البوذية على وجه التحديد-، التي زرعها التاريخ في الحس الجمالي الياباني، يقدمها السيد (هيرن) ممتزجة بالروح العلمية للغرب. اندمجت تلك الطرق الثلاث في عقله وعاطفته فقدم تركيبة غنية فريدة من نوعها، أضفت على الأدب جانبًا نفسيًا لم يعرفه من قبل.

ولما حظيت مقالة السيد (مور) بإشادة السيد (هيرن) وتقديره، وددت اقتباسها هنا لتكون المقدمة الملهمة لهذه المجموعة القصصية الجديدة عن اليابان القديمة. المجموعة التي وصفها السيد (مور) بأنها "أحلام الهند الزاهدة، وجمال اليابان الرقيق، وعلم أوروبا الذي لا يلين".

مارس/ آذار 1904.

معظم قصص (كوايدان) أو قصص الغرائب مأخوذة من كتب يابانية قديمة؛ أذكر منها على سبيل المثال (ياسو كيدان)، و(بوكيو هياكاوا زنشو)، و(كوكون تشومونشو)، و(تاما سوداري)، و(هياكو مونوجاتاري).

ولبعض تلك القصص أصل صيني؛ كقصة (حلم أكينوسوكي) مثالًا، إلا أن الراوي شكل مصادره ولونها بحيث تندمج بسلاسة مع الثقافة اليابانية. إحدى تلك القصص- قصة (يوكي أونا) -، سمعتها عن لسان أحد فلاحي (تشوفو) الواقعة في منطقة (نيشيتاماغوري) بمقاطعة (موساشي). قصها عليّ باعتبارها إحدى أساطير قريته الأم. لست أعرف إذا كانت القصة قد دونت باليابانية من قبل، لكن أساسها منتشر في معظم أنحاء اليابان باختلاف الصور والحكايات. أما حادثة (ريكي باكا) فتجربة شخصية كتبتها كما حدثت تقريبًا، مع تغيير اسم العائلة الذي ذكره الراوي الياباني.

لافكاديو هيرن طوكيو، اليابان، 20 يناير/ كانون الثاني 1904.

کوایدان

ميمي ناشي هويتشي

في مضيق (شيمونوسيكي)، بالتحديد في (دان نو أورا) دارت معركة الحسم.

قبل سبعمائة عام ويزيد دارت المعركة التي أنهت الصراع الطويل بين عشيرتي (هيكيه) و(غينچي)، أو كما عُرفا: جيشا (تايرا) و(مينامونو).

أُفنيت عشيرة (هيكيه) عن بكرة أبيها نساء وأطفالًا، حتى الامبراطور الرضيع الذي نعرفه اليوم باسم (أنتوكوتينو). منذ ذلك الحين وحتى يومنا هذا سكنت أرواحهم المضيق وشاطئه. حتى سرطاناته -التي سميت باسم تلك العشيرة- لم تسلم، إذ سكنت ظهورها رسوم لوجوه يقال إنها وجوه محاربي (هيكيه).

كلما هبت عاصفة انبعثت من البحر أصوات كأنها صليل المعارك. وفي الليالي المظلمة؛ تحوم آلاف الأشباح المتوهجة كشعلات من نار بطول الساحل وتحلق فوق الأمواج. وقد أطلق الصيادون على تلك الأشباح النارية اسم (أوني بي)؛ نيران الشياطين.

كانت السنوات الأولى التي تلت المعركة أوج هياج عشيرة (هيكيه)، فكانت أشباحهم تعترض السفن المارة ليلًا وتحاول إغراقها. حتى السباحين، كانت تحاول سحبهم إلى قاع البحر.

لذا بنى الناس معبد (أميداچي) البوذي في (أكاماغاسيكي)، علّ أرواح العشيرة تستريح. وللسبب ذاته بنوا مقبرة قرب الشاطئ، وشواهد لقبور تحمل اسم الامبراطور الغريق ومستشاريه الكبار، وأقاموا الصلوات البوذية باستمرار. وقد أسفرت تلك المحاولات عن هدوء نسبي؛ فقل إزعاج عشيرة (هيكيه) كثيرًا، لكنهم لا زالوا يقومون بأفعال غريبة بين الحين والآخر، ما يدل أن أرواحهم لم تجد السلام التام بعد.

وقبل بضع مئات من السنين عاش في (أكاماغاسيكي) رجل أعمى يدعى (هويتشي)، عُرف بمهاراته في الإنشاد وعزف البيوا (1) . تفوق (هويتشي) على معلميه منذ الصغر، وتدرب على الإنشاد والعزف حتى ذاع صيته كعازف (بيوا) محترف ومنشد لسيرة عشيرتي (هيكيه) و(غينچي). ويقال إن قلوب الشياطين ذاتها كانت تلين عندما يتغنى عن معركة (دان نو أورا) فتسيل دموعهم.

في بداياته كان (هويتشي) فقيرًا معدمًا، لولا أن أهداه القدر صديقًا مخلصًا. كان كاهن معبد (أميداچي) مولعًا بالشعر والموسيقى؛ ولإعجابه بمهارات الصبي الاستثنائية كان كثيرًا ما يدعوه إلى المعبد ليعزف وينشد. ثم عرض على (هويتشي) ذات يوم أن يسكن المعبد، ولن يطلب منه لقاء طعامه وسكناه سوى أن يسر الكاهن بعروضه الموسيقية في أمسيات راحته؛ فقبل (هويتشي) العرض الكريم بامتنان.

وذات ليلة صيف استُدعي الكاهن لبيت أحد المؤمنين لأداء طقوس جنازة، فذهب رفقة مساعده وتركا (هويتشي) وحيدًا في المعبد. كانت ليلة حارة فوقف الفتى في الشرفة المقابلة لغرفة نومه يبتغي بعض الهواء. وبينما كان ينتظر عودة الكاهن في الشرفة المطلة على حديقة المعبد الخلفية، عزف البيوا لتخفف وحدته. لكن الليل انتصف ولم يعد الكاهن، ولم تخف حرارة الجو كذلك، فظل (هويتشي) ينتظر.

وأخيرًا، سمع خطوات تقترب من البوابة الخلفية، وتعبر الحديقة، وتقترب من الشرفة، ثم تتوقف. تلا صوت الخطوات صوت عميق ينادي (هويتشي) دون احترام، لكن الصوت لم يكن صوت الكاهن ولا الأسلوب أسلوبه، بل هو أقرب لساموراي ينادي من هو أقل منه منزلة.

- "هويتشي!".

ارتعدت أوصال الفتى وألجم الخوف لسانه، فعاد الصوت القاسي ينادي بصرامة:

- "هويتشي!"

أجاب في رعب: "أنا أعمى! لست أعرف من ينادي!".

رد الغريب وقد لطف صوته قليلًا: "لا تخف. أني أسكن هنا قرب المعبد، ومعي رسالة إليك من سيدي صاحب المقام الرفيع. إن سموه يقيم حاليًا في (أكاماغاسيكي) مع

ضيوفه من النبلاء، وقد زاروا اليوم موقع معركة (دان نو أورا). ولما سمعوا عن مهاراتك في إلقاء قصة المعركة، رغبوا في سماعك. لذا، هات البيوا وتعال معي إلى الجمع الكريم." في تلك الحقبة كانت أوامر فرسان الساموراي لا ترد، فارتدي (هويتشي) نعليه وحمل البيوا، وذهب مع الغريب.

أمسك الساموراي يد (هويتشي) بقبضة من حديد وقاده عبر الطريق بمهارة، لكن بسرعة كبيرة. واستنتج الفتى مما كان يسمع أن الفارس يرتدي عتادًا كاملًا، فخمن أنه أحد حراس القصر.

بعدما هدأ خوف (هويتشي)، أدرك كم هو محظوظ. فقد أخبره الفارس أن سيده صاحب مقام رفيع، لا بد إذًا أن السيد الذي يريد سماعه ليس أقل من دايميو (2) من المرتبة الأولى.

عندما توقف الساموراي عرف (هويتشي) أنهما قد وصلا إلى بوابة كبيرة. وعجب لذلك، فليس هناك أي بوابة كبيرة في هذه المنطقة سوى بوابة المعبد.

- "كايمون!" (3) .

فُتحت البوابة لنداء الساموراي ودخلا، وبعدما عبرا حديقة توقفا أمام مدخل، وصاح الفارس عاليًا: "لقد أتيت ب(هويتشي)!".

سمع الفتى صوت أقدام مسرعة، ثم مزاليج تنزلق وأبواب تفتح، ثم أصوات نساء تتحدث.

استنتج (هويتشي) من أصواتهن أنهن خادمات في بيت نبيل، لكنه عجز عن تصور المكان الذي سيق إليه. ولم يكن الوقت كافيًا للتفكير على أية حال؛ فبعد أن ساعده الفارس في صعود عدة درجات حجرية خلع حذائه عند آخرها؛ سرعان ما سلمه إلى امرأة رافقته عبر ممرات مصقولة بدت كأنما لا نهاية لها. مرا بأعمدة عجز عن حصرها، وأرضيات فرشت -على اتساعها المدهش- بالسجاد، حتى وصلا إلى منتصف غرفة ضخمة تملؤها خشخشة الحرير كما أوراق الشجر في الغابة؛ فعرف أنها غرفة السادة. وعندما وصل أذنيه صوت همهماتهم العالية وجد لغتهم قريبة للغة المحاكم، فتأكد أن الجمع من علية القوم وعظمائهم.

قيل لـ(هوتشي) أن يأخذ راحته، فاتخذ مقعده على وسادة جلوس أعدت له خصيصًا. وبعد أن اتخذ مكانه وضبط آلته الموسيقية، قالت له امرأة بدت أنها الروچو- أي كبيرة الخادمات -: "غنّ سيرة (الهيكيه) على أنغام البيوا".

ولما كانت السيرة طويلة تستغرق ليال كاملة لحكيها، استجمع (هويتشي) شجاعته وسألها: "أهناك جزء معين يرغب السادة في سماعه الآن؟ إن القصة الكاملة يصعب سردها في ليلة واحدة".

أجابته السيدة: "قصة معركة (دان نو أورا)، فهي أعظم ما في السيرة مأساةً".

شرع (هويتشي) يحكي المعركة البحرية المريرة، واستحال صوت البيوا إلى صوت السواري، واندفاع السفن، وصفير الهواء بينما تشقه السهام، وصيحات الرجال، والسيوف تنهال على الخوذ، وجثث القتلى تصطدم بالأمواج. وعندما كان العزف يتوقف كان الفتى يسمع عن يمينه وشماله أصوات الثناء الهامسة:

- "يا له من فنان رائع!".

- "لم أسمع عزفًا كهذا في المقاطعة بأكملها!".

- "ليس هناك من هو مثل (هويتشي) في جميع أنحاء الإمبراطورية".

فيتشجع (هويتشي) أكثر، ويشدو بالألحان والكلمات على نحو أجمل، حتى غشيت الدهشة الجميع وساد هدوء تام من حوله.

عندما وصل أخيرًا إلى مصير النساء والأطفال ومشاهد موتهم التراچيدي، و(ني ني أوما) التي احتضنت الامبراطور الطفل بين ذراعيها وقفزت به إلى البحر؛ صرخ الحاضرون صراخًا يمزق نياط القلوب، وبكوا وانتحبوا حتى خاف (هويتشي) من حالة الحزن التي خلقها. واستمر البكاء والنحيب حتى تلاشى تدريجيًا تاركًا

المجال للصمت المهيب. بعد ذلك سمع صوت الروجو تقول له: "رغم علمنا بأنك عازف متقن لا مثيل له في الإنشاد إلا أننا لم نتصور المهارة التي أثبتتها الليلة. لذا يسر سيدي إخبارك بأنه يعتزم منحك مكافأة كبيرة، بشرط أن تقدم عرضك أمامنا كل ليلة لمدة ست ليال هي مدة إقامة سيدي هنا قبل أن يعود إلى قصره. غدًا سيأتيك ذات الفارس الذي رافقك الليلة في الموعد نفسه. وهناك شرط آخر، لا تخبر أحدًا أبدًا بمجيئك إلى هنا، فسيدي يسافر باسم مستعار. يمكنك الآن العودة إلى المعبد".

بعد أن عبر لها (هويتشي) عن جزيل شكره، قادته المرأة إلى مدخل القصر حيث كان الفارس في انتظاره، وأوصله إلى الشرفة الخلفية للمعبد، ثم ودعه ورحل.

عاد (هويتشي) قرب الفجر ووجد الكاهن نائمًا، فعرف أن أحدًا لم يدر بغيابه عن المعبد.

خلال النهار أخذ قسطًا من الراحة، ولم يذكر شيئًا عن مغامرته العجيبة. وفي منتصف الليلة التالية، أتى الساموراي ليأخذه ثانية، وذهب به إلى قصر السادة الذين متعهم بعزفه تمامًا كما الليلة الأولى. لكن تلك الليلة لم تمر كسابقتها، إذ اكتشف رجال المعبد غيابه بالصدفة. وعندما عاد مع شروق الشمس، استُدعي إلى حضرة الكاهن الذي وبخه بلطف قائلًا: "لقد قلقنا عليك جدًا يا صديقي (هويتشي)، إن خروجك وحدك في الليل بالذات وأنت عميّ خطر كبير. لماذا خرجت دون أنت تخبرنا؟

كنت لآمر لك بخادم يرافقك".

أجاب (هويتشي) بحذر: "سامحني يا صديقي الطيب! كان عليّ الاهتمام ببعض شأني، ولم يتح لي الوقت لترتيب الأمر معك".

لم يُحزن تحفظ (هوتشي) صديقه الكاهن، بل أثار دهشته وحفيظته لأنه شعر بشيء غير طبيعي. وشك أن الفتى الأعمى قد سُحر أو خدعته روح شريرة فلم يُطل استجوابه، لكنه أوعز سرًا لخدام المعبد أن يراقبوا تحركات (هويتشي) ويتبعوه إذا خرج من المعبد بعد الغروب.

في الليلة التالية، رأى الخدام (هويتشي) يغادر المعبد، فأشعلوا مصابيحهم وتبعوه. لكن الليلة كانت مطيرة وحالكة الظلمة، ففقد الخدام أثر (هويتشي) الذي اختفى عن أنظارهم لأنه كان يسير بسرعة. وعجبوا لذلك، فهو أعمى البصر والطريق في حال سيئة.

طرق الخدام كل بيت اعتاد (هويتشي) زيارته، لكن أحدًا لم يره أو يعرف أي خبر عنه. وبينما كانوا يسلكون طريق الشاطئ عائدين إلى المعبد، سمعوا صوت عزف بيوا يصدح من مقبرة (أميداچي).

كان كل شيء في تلك الناحية مظلمًا باستثناء وهج بعض الأشباح النارية كما العادة. أسرع الخدام إلى المقبرة في الحال، وهناك على ضوء مصابيحهم رأوا (هويتشي) يجلس وحيدًا تحت المطر أمام ضريح (أنتوكوتينو)، يعزف البيوا

وينشد بصوت عال عن معركة (دان نو أورا).

كان (الأوني بي) يحيطونه من كل اتجاه ويحومون فوق القبور كلها، عدد منهم لم يره إنسان قط.

صاح الخدام: "أخ (هويتشي)! يا أخ (هويتشي)! أنت مسحور! أخ (هويتشي)!".

لم يبد على (هويتشي) أي أمارة للسمع، بل استمر يعزف البيوا وينشد بجنون. أمسكوا به وصرخوا في أذنه: "يا أخ (هويتشي)! أخ (هويتشي)! عد معنا على الفور!".

وبخهم (هويتشي) في غضب قائلًا: "لن يسامحك السادة على قطع العرض بهذه الطريقة". ولم يستطع الخدم رغم غرابة الموقف أن يكتموا ضحكاتهم، فقد ظنوا أنه تحت تأثير السحر.

أنهضوه قسرًا وجروه نحو المعبد، وبأمر من الكاهن بدلوا ملابسه التي بللها المطر. وأصر الكاهن بعد ذلك أن يفسر له صديقه الأمر تفسيرًا وافيًا. وعندما لمس (هويتشي) قلق الكاهن الطيب وغضبه، نقض وعده بعد كثير تردد وقص كل ما حدث منذ زيارة الساموراي الأولى.

قال الكاهن: "(هويتشي) يا صديقي المسكين! إنك الآن في خطر كبير! وإنه ليؤسفني أنك لم تخبرني قبلًا! يبدو أن موهبتك الموسيقية الرائعة أوقعتك في مشكلة غريبة. اعلم أنك لم تزر أي قصر أبدًا، بل كنت تقضي لياليك بين قبور (الهيكيه)، أمام نصب (أنتوكوتينو) حيث وجدناك الليلة

جالسًا تحت المطر. كل ما حكيت- باستثناء نداء الأموات لك- كان وهمًا. لقد وضعت نفسهم تحت إمرتهم عندما أطعتهم أول مرة، لكن إذا ذهبت لهم مجددًا بعد ما حدث اليوم سيقطعونك إربًا بكل تأكيد، قطعًا سيفعلون عاجلًا أم آجلًا. على أي حال، لن أستطيع قضاء الليلة معك، فعلي الذهاب لبعض طقوس الجنازة، لكني سأحصنك بحجاب مقدس قبل أن أذهب".

قبل غروب الشمس، جرد الكاهن وتلاميذه (هويتشي) من ثيابه، وكتبوا على جسده نصوصًا مقدسة من السوترا. كتبوا نصوص (هانيا شين كيو) (4) على صدره وظهره ورأسه ووجهه وعنقه وأطرافه ويديه وقدميه، حتى باطن قدميه لم يخل من نصوص.

عندما انتهوا قال الكاهن ل(هويتشي): "الليلة بعدما أنصرف مباشرةً، اجلس في الشرفة وانتظر. سيأتيك الساموراي حتمًا، لكن لا تجب النداء ولا تتحرك مهما حدث. لا تنبس بكلمة وابق جالسًا كما لو كنت في حالة تأمل، لأنك إذا تحركت أو أصدرت أي صوت سيقصمك إلى نصفين. ولا تفكر في طلب النجدة، فلن ينجدك أحد. إذا نفذت ما أقول سيزول الخطر، ولن نخشى شيئًا بعد ذلك".

غادر الكاهن وتلميذه في الغسق، واتبع (هويتشي) تعليمات كاهنه فجلس في الشرفة والبيوا إلى جانبه، وبقي ساكنًا في خشوع، حريصًا ألا يسعل أو يتنفس حتى

بصوت مسموع. وهكذا ظل لساعات حتى سمع خطوات قادمة من بعيد، تتجاوز البوابة، تعبر الحديقة، ثم تقترب من الشرفة وتتوقف أمامها كما العادة.

سمع الصوت العميق ينادي: "(هويتشي)!".

حبس الفتى أنفاسه وجلس بلا حراك.

بحزم تكرر النداء ثانيةً: "(هويتشي)!".

ثم ثالثًا بغضب: "(هويتشي)!".

ظل (هويتشي) ساكنًا كالحجر.

سمع المنادي يقول متذمرًا: "لا رد إذًا! لكني لن أرضى بالصمت جوابًا، يجب أن أرى أين هذا الفتى".

صوت أقدام ثقيلة تتسلق الشرفة، ثم تقترب بتأنٍ وتقف إلى جوار (هويتشي) المرتجف خوفًا. ولدقائق طويلة خيم الصمت على الوجود.

وأخيرًا همس الصوت الخشن: "ها هي البيوا، لكني لا أرى من عازفها إلا أذنين! لهذا لم يكن يجيب إذًا، كيف سيجيب دون فم! علي أن آتي لسيدي بهاتين الأذنين كإثبات على اتباعي أوامره السامية قدر المستطاع".

في تلك اللحظة، شعر (هويتشي) بأصابع فولاذية تمسك بأذنيه وتقطعهما. ورغم الألم الفظيع، لم تصدر عنه أي صرخة. وعادت الخطى الثقيلة أدراجها خارج الشرفة، ثم اتجهت للحديقة ومنها إلى الطريق.

شعر (هويتشي) بسيل سميك دافئ يتدفق على جانبي رأسه، لكنه لم يقدر على رفع يديه.

قبل الشروق عاد الكاهن، واندفع على الفور نحو الشرفة الخلفية. انزلقت قدمه على شيء لزج، ثم صرخ في رعب لما رأى الدم على ضوء المصباح. رأى (هويتشي) جالسًا في وضع المتأمل والدماء تسيل من جراحه، فصاح مذعورًا: "(هويتشي) أيها المسكين! ماذا بك؟ أأنت جريح؟".

عندما سمع صوت صديقه شعر الأعمى بالأمان؛ فانهار في البكاء وأخبره بحرقة عما حدث في الليل.

صرخ الكاهن: "آه يا (هويتشي) المسكين! الخطأ خطئي! لقد حصنت جسدك بالنصوص المقدسة وأغفلت أذنيك! ظننت أن تلميذي سيتكفل بهما، لكن خطئي الشنيع أني لم أتأكد من إتمامه مهمته! لكن ما حدث قد حدث، وليس هناك ما نفعله سوى تطبيب جروحك لتشفى في أسرع وقت. ابتهج يا صديقي! لقد زال الخطر تمامًا ولن يأتيك هؤلاء الزوار ثانيةً".

تعافى (هويتشي) من إصاباته بمساعدة طبيب بارع، وانتشرت قصته الغريبة في البلد بأكمله فازداد شهرةً، وتوافد النبلاء على (أكاماغاسيكي) لسماعه يلقي قصائده، وأكرموه بالعطايا حتى أصبح رجلًا ثريًا، لكنه عرف منذ ذلك الحين باسم (ميمي ناشي هويتشي)؛ (هويتشي)

الذي لا أذن له.

أوشيدوري (5)

في منطقة (تامورا نو غو) بمقاطعة (موتسو) عاش صقّار (6) وصياد يدعى (سونچو).

ذات يوم خرج (سونچو) بحثًا عن صيد. لكن بحثه طال دون جدوى، فلم يجد بدًا من العودة إلى المنزل خالي الوفاض. وفي طريق عودته بينما يوشك عبور نهر (أكانوما) لمح زوجًا من الأوشيدوري يسبحان معًا. ورغم أن قتل طيور الأوشيدوري (7) يعتبر نذير شؤم، إلا أن (سونچو) وبدافع من جوعه الشديد وجه سهامه نحو الطير. أصاب سهمه ذكر البط، أما أنثاه فهربت إلى الأعشاب الكثيفة على الناحية الأخرى من النهر واختفت.

حمل (سونچو) صيده سعيدًا وعاد به إلى المنزل ليطهو عشاءه.

وفي تلك الليلة، راوده كابوس مُقبض. رأى فيما يرى النائم أن امرأة جميلة دخلت غرفته ووقفت عند وسادته، ثم أخذت تبكي بكاءً مكلومًا كاد ينفطر له قلبه. صرخت المرأة قائلة: "لماذا؟ لماذا قتلته؟ بأي ذنب؟ كنا غاية في السعادة معًا في (أكانوما)، وأنت قتلته! ماذا فعل لك؟ أتدرك فداحة فعلتك؟ أتعرف مدى بشاعة وقسوة ما اقترفت؟ إنك لم تقتله وحده بل قتلتني معه، فلن أعيش يومًا واحدًا دون زوجي، وما أتيت إلا لأخبرك بهذا".

وعادت ثانية إلى البكاء الذي يمزق نياط القلوب ، ورددت بين دموعها أبيات قصيدة:

"يا من تجوب البلاد،

مع الشفق ناديتك

لتعود معي.

والآن،

وحدي أنام

تحت ظلال أسل (8) (أكانوما).

أعظم بهذا من شقاء!"

بعدما انتهت من الأبيات هتفت بحرقة: "آه! إنك لا تعرف ماذا جنت يداك، كيف لك أن تعرف! لكن في الغد سترى؛ عندما تذهب إلى (أكانوما)، سترى".

ورحلت.

استيقظ (سونجو) في الصباح وكابوسه المزعج واضح في ذهنه كما النهار.

"لكن في الغد سترى؛ عندما تذهب إلى (أكانوما)، سترى".

عندما تذكر تلك الكلمات قرر فورًا الذهاب إلى (أكانوما) ليتبين إذا كانت رؤياه حقًا أم أضغاث أحلام.

على ضفة نهر (أكانوما) رأى (سونچو) أنثى الأوشيدوري تسبح وحيدة. وفي اللحظة التي استشعرت فيها وجود (سونچو) لم تحاول الهرب، بل رمقته بنظرة متجمدة غريبة وسبحت نحوه مباشرةً، ثم مزقت جسدها بمنقارها لتموت على مرأى من الصياد.

حلق (سونچو) رأسه، واتخذ الكهنوت مسارًا لحياته.

قصة أوتي

في قديم الزمان، عاش رجل يدعى (ناغاو تشوسي) في مدينة (نيغاتا) بمقاطعة (إيتشيزن).

ورث (ناغاو) مهنة أبيه الطبيب، وفي سن مُبكرة خطب له والده ابنة أحد أصدقاءه، فتاة اسمها (أوتي). واتفقت العائلتان أن يتم الزفاف بمجرد أن ينتهي (ناغاو) من دراسته، لكن (أوتي) التي حُرمت نعمة الصحة أصيبت في الخامسة عشرة من عمرها بمرض لا يُرجى شفاؤه.

وعلى فراش موتها أرسلت في طلب (ناغاو) لتودعه الوداع الأخير.

وبينما هو راكع جوار فراشها قالت له: "(ناغاو) يا خطيبي العزيز، لقد قُدّرنا لبعضنا منذ الطفولة، وكنا سنتزوج في نهاية العام لولا أني أموت الآن كما ترى. إني لست ساخطة؛ فالآلهة تعرف ما فيه خيرنا، ولن تكون حياتي بعد الآن سوى عبء على من حولي ومصدرًا لتعاستهم. كما لن يساعدني جسدي الهزيل أن أكون الزوجة الصالحة التي تستحقها، لذا فحتى تمني الحياة يعد أنانية مني. إني مستعدة للقاء الموت، عدني فقط ألا تحزن. وأود أيضًا إخبارك أننا سنلتقي مجددًا".

أجابها (ناغاو): "حتمًا سنلتقي؛ فأرض الخلود لا تعرف ألم الفراق".

ردت برقة: "لا، لم أعن لقاءنا في الجنة. إني أؤمن أننا سنلتقي ثانيةً في هذا العالم رغم أني سأدفن غدًا".

تطلع (ناغاو) إلى (أوتي) في عجبٍ ابتسمت له، فأكملت بذات الصوت الرقيق الحالم: "أجل، سنلتقي في هذا العالم، في حياتك هذه يا (ناغاو) العزيز، شريطة أن تتمنى هذا اللقاء بالطبع. لكن ليحدث هذا يجب أن أولد من جديد كفتاة وأكبر لأصير امرأة، ستضطر أن تنتظر حوالي خمسة أو ستة عشر عامًا. أعرف أنه وقت طويل، لحسن الحظ -يا زوجي الموعود- أنك ما تزال في ا لتاسعة عشر من العمر".

وليريحها في لحظاتها الأخيرة أجابها (ناغاو) برقة: "إن انتظاري لك يا حبيبتي واجب سأؤديه، ومسرة سأعيش لأجلها. نحن مكتوبان لبعضنا إلى الأبد، حتى تنتهي حيواتنا السبع".

سألته بينما تراقب تعبيرات وجهه: "ولكنك تشك؟".

- "إني أشك في مقدرتي على التعرف عليك في جسد جديد وباسم جديد دون أن تعطيني علامة أو رمزًا".

- "لا أستطيع، لكني متأكدة، يملئني اليقين أنك إذا رغبت وجودي سأتمكن من العودة إليك، تذكر هذا".

توقفت عن الكلام وأغمضت عينيها، وغابت عن عالمنا.

***

كان قلب (ناغاو) معلقًا ب(أوتي) بحق، فكان ألمه لفراقها عظيمًا. لذا صنع شاهدًا تذكاريًا نُقش عليه اسمها البوذي (9) ، ووضعه في بوتسودان (10) يصلي أمامه كل يوم.

فكر كثيرًا في كلمات (أوتي) الأخيرة، وفي محاولة لأن يهدي السلام لروحها كتب على نفسه تعهدًا رسميًا يلزمه بالارتباط بها إذا عادت إليه في جسد جديد. وختم هذا التعهد بخاتمه ووضعه في البوتسودان إلى جوار شاهدها التذكاري.

لكن (ناغاو) كان ابنًا وحيدًا وزواجه ضرورة لعائلته، لذا سرعان ما اضطر للزواج نزولًا عن رغبتهم. وبعدما تزوج من فتاة اختارها والده، لم يتخل عن عادة الصلاة أمام شاهد (أوتي)، ولم يهدأ حنينه لها. لكن صورتها في ذاكرته بهتت مع الوقت، وأصبحت كصورة حلم مشوش يصعب تذكره، ومرت السنوات.

خلال تلك السنوات فقد (ناغاو) والديه، وتلتهما زوجته ثم ابنه الوحيد. ولما أصبح وحيدًا في هذه الدنيا قرر أن يهجر منزله الموحش، وانطلق في رحلة طويلة أمل أن تنسيه أحزانه.

توقف وسط رحلته في (إيكاو)؛ قرية جبلية معروفة بينابيعها الحارة وطبيعتها الخلابة. وفي نُزل القرية أتت فتاة شابة لخدمته، وما أن رآها حتى قفز قلبه بين ضلوعه. إن

شبه الفتاة ب(أوتي) عجيب، حتى أنه قرص نفسه ليتأكد أنه لا يحلم. ظل يتابع حركتها بينما تنقل الحطب والطعام وتجهز غرف الضيوف، أسلوبها وطريقة حركتها أحيتا فيه ذكرى جميلة للفتاة التي خطبت له في شبابه. حدثها فردت عليه بصوت ناعم هادئ أحيت عذوبته ذكرى حزنه القديم.

في دهشة بالغة سألها: "معذرة يا أخت، إنك تشبهين فتاة عرفتها قبل زمن بعيد حتى أني صدمت عندما رأيتك للمرة الأولى، هل تسمحين لي بسؤالك عن اسمك ومسقط رأسك؟".

أجابته بصوت حبيبته الراحلة الذي لم ينسه أبدًا: "اسمي (أوتي)، توفيت قبل سبعة عشر عامًا في (نيغاتا). وأنت (ناغاو تشوسي) من (إتشيغو)، زوجي الموعود الذي تعهد بإتمام زواجنا إذا عدت للعالم بجسد امرأة، وختم وعده بخاتمه ووضعه في بوتسودان جوار شاهد يحمل اسمي. ولهذا عدت".

ما أن أنهت جملتها حتى سقطت فاقدة للوعي.

تزوجها (ناغاو)، ونعما بزواج سعيد. لكن زوجته لم تتمكن أبدًا من تذكر جوابها على سؤاله في (إيكاو)، ولم تتذكر أي شيء يخص حياتها السابقة.

انطفئت الذكرى التي لمعت لحظة لقائهما، وظلت كذلك إلى الأبد.

أوباساكورا

قبل ثلاثمائة عام عاش رجل صالح يدعى (توكوبي) في منطقة (أونسينغوري) بمحافظة (إيو)، في قرية تدعى (أساميمورا).

كان (توكوبي) أغنى أغنياء منطقته ومواوسا قريته، أي كبيرها. كان رجلًا محظوظًا في المجمل، لكنه بلغ الأربعين محرومًا من الأبناء. لذا دائمًا ما كان وزوجته يقصدان معبد القرية معبد (سايهوچي)، ويتوجهان بالدعاء لإله الحماية (فودو ميو).

وأخيرًا استجاب الإله لصلواتهم، ووضعت زوجة (توكوبي) مولودة بديعة الجمال أطلقا عليها اسم (أوتسويو). ولنقص حليب الأم، استأجرا مرضعة تدعى (أوسودي).

كبرت (أوتسويو) واستوت فتاة جميلة، لكنها أصيبت في الخامسة عشرة بمرضٍ شديد قدر الأطباء أنه مرض الموت. حينها، ذهبت المرضعة (أوسودي) إلى معبد (سايهوچي) وصلت بصدق لأجل (أوتسويو) التي أحبتها كأنها ابنتها. ظلت (أوسودي) تذهب إلى المعبد وتتضرع إلى (فودو ميو) بالدعاء واحدًا وعشرين يومًا متتاليين، وفي اليوم الثاني والعشرين استعادت (أوتسويو) عافيتها تمامًا بشكل مفاجئ.

عم منزل (توكوبي) فرحٌ كبير، وأقام والدها احتفالًا دعا إليه جميع أصدقاءه. لكن في ليلة الحفل مرضت

المرضعة (أوسودي) بغتة، وأعلن طبيبها المعالج في الصباح التالي أنها على مشارف الموت. وفي حزن عميق اجتمع أفراد العائلة حول سريرها ليؤنسوا لحظاتها الأخيرة.

قالت لهم: "حان الوقت لأخبركم بما خفي عنكم، لقد رجوت الإله (فودو ميو) أن يشفي (أوتسويو) وأموت بدلًا منها، وقد أنعم عليّ بتلك النعمة العظيمة فلا تحزنوا لموتي، لكن لي طلب واحد. لقد نذرت أن أزرع شجرة كرز في حديقة المعبد شكرًا للإله إذا تم مرادي. لكن الوقت لم يمهلني، لذا أرجوكم أن توفوا بالنذر نيابةً عني. وتذكروا دائمًا أني سعدت بموتي فداء (أوتسويو)، وداعًا يا أحبائي".

بعد جنازة (أوسودي)، زرع والدا (أوتسويو) شجيرة كرز من أجود الأنواع.

نمت الشجيرة واشتدت شجرة مورقة، وفي الذكرى الأولى لوفاة (أوسودي) التي وافقت اليوم السادس عشر من فبراير، أزهرت الشجرة زهورًا بديعة. ولمدة مائتين وأربع وخمسين سنة في التاريخ ذاته من كل عام، أزهرت شجرة الكرز زهورًا وردية وبيضاء تشبه في تكوينها حلمة ثدي أم مبللة بالحليب.

أطلق الناس على الشجرة اسم (أوباساكورا)؛ شجرة كرز المرضعة.

دبلوماسية

أُمر بتنفيذ حكم الإعدام في إحدى (الياشيكي) (11) .

نُقل المحكوم عليه إلى الحديقة، وخطا فوق ممر أحجار (12) إلى مساحة رملية، ثم أجبر على الركوع وذراعاه مربوطان خلف ظهره.

أحضر الخدم دلاء من الماء وزكائب مليئة بالحصى، وأحاطوا المحكوم عليه بالزكائب ليعجزوه عن الفرار. أتى سيدهم فألقى نظرة على الترتيبات، ولما وجدها مرضية لم يعلق.

فجأة، صرخ المحكوم عليه قائلًا: "يا سيدي الكريم، إني لم أرتكب جريمتي عمدًا. لقد تسبب غبائي الشديد في هذا الخطأ، فقد ولدت غبيًا، وأوقعني هذا في المشاكل طيلة حياتي. لكن غبائي ليس مبررًا لإعدامي، إن إعدامكم لي خطأ ستدفعون ثمنه غاليًا. سيستوجب إعدامي الثأر، فالكره يستوجب الثأر، والشر يقابله الشر".

إذا قُتل إنسان وفي روحه كره أو حقد سيعود شبحه لينتقم من القاتل. كان السيد فارس الساموراي يعرف هذا، فرد بهدوء ولامبالاة: "سندع شبحك يخيفنا كيفما شاء، رغم أنه من العصي تصديق أنك تعني ما تقول. أتود إعطائنا علامة نعرف بها الشر الذي سيحل علينا بعدما

نقطع رأسك؟".

- "بالطبع".

قال السيد بينما يستل سيف الساموراي الطويل: "حسنًا! سأقطع رأسك أمام هذا الحجر، حاول أن تعضه بعدما نقطع رأسك. إذا استطاع شبحك فعل هذا فربما نخاف. هل ستحاول عض الحجر؟".

صرخ الرجل بغضب عارم: "سأعضه! سأعضه!".

وفي غمضة عين شق السيف الهواء، وتبعه الدوي الذي تقشعر له الأبدان. تهاوى الجسد فوق زكائب الحصى ونافورتان من الدم تخرجان من العنق المقطوع، بينما تدحرج الرأس فوق الرمال. لكن الرأس سرعان ما اندفع نحو الحجر وانقض عليه بأسنانه، وبيأس تشبث بالحجر للحظة ثم سقط خامدًا.

لم ينبس أحد بكلمة، بل نظروا بعيون ملؤها الرعب إلى سيدهم الذي لم يبد عليه أي اهتمام. ناول السيد سيفه إلى أقرب خادم فصب الماء بدوره على السيف من المقبض حتى الذبابة (13) ، ثم مسحه بعناية عدة مرات باستخدام منشفة ناعمة، وانتهت بذلك طقوس الإعدام.

عاش الخدم لشهور في حالة خوف، مترقبين زيارة الروح الغاضبة. لم يساورهم شك أن الانتقام الموعود سيحل عليهم، وتسبب هلعهم في خيالات لا وجود لها، فصار صوت الرياح عندما تداعب أعواد الخيزران يرهبهم،

وحركة الظلال في الحدائق تبث الرعب في قلوبهم. أخيرًا وبعد مشاورات قرروا التوسل لسيدهم ليسمح لهم بإقامة (سيغاكي) (14) للروح الغاضبة.

عندما عبر كبير الخدم عن رغبتهم قال السيد: "لا داعي لهذا. إني أتفهم أن أرواح المنتقمين قد تثير الخوف، لكن حالتنا هذه ليس فيها ما يخيف".

نظر الخادم إلى سيده نظرة ملتمسة بيد أنه لم يجرؤ على سؤاله عن سبب تلك الثقة. لكن السيد فهم، فأجاب ليقطع الشك: "ينص قانون الساموراي أن آخر مشاعر المقتول هي مصدر الخطر. وقد حولته عن رغبته في الانتقام بتحديه أن يعطيني الإشارة، فمات وهو يهدف عض الحجر. وقد تمكن بالفعل من عضه ونسي كل شيء آخر، لذا لا داعي أن تستمروا في القلق بهذا الشأن".

وبالفعل لم يسبب القتيل أي مشكلة، ولم يحدث أي شيء على الإطلاق.

عن مرآة وجرس

قبل ثمانية قرون أراد كهنة معبد (موغيناما) في مقاطعة (توتومي) أن يصنعوا جرسًا كبيرًا لمعبدهم؛ فطلبوا من نساء المعبد التبرع بمراياهن البرونزية القديمة لصنع الجرس. (حتى وقتنا هذا، ستلاحظ في بعض ساحات المعابد اليابانية أكوامًا من المرايا البرونزية القديمة المتبرع بها للغرض ذاته. أكبرها كانت تلك التي رأيتها في ساحة معبد لطائفة (چودو) في (هاكاتا)، (كيوشو)؛ إذ تبرعت نساء الطائفة بالمرايا لصنع تمثال نحاسي لبوذا يبلغ ارتفاعه ثلاثة وثلاثون قدمًا).

وكانت زوجة أحد الفلاحين ضمن النسوة اللواتي تبرعن بمراياهن للمساهمة في صنع الجرس، لكن تلك المرأة سرعان ما ندمت عندما تذكرت حكايا والدتها عن المرآة التي ورثتها عن أمها وجدتها من قبلها، وعندما تذكرت أيضًا كم من ابتسامات عكستها تلك المرآة. فكرت أن تطلب من كهنة المعبد استرجاع مرآتها مقابل أن تعطيهم ما يوازي قيمتها نقدًا، لكن من أين لها بهذا المبلغ؟

وكلما ذهبت إلى المعبد رأت مرآتها ملقاة في الساحة خلف حاجز من الأسلاك. كانت تعرفها بين مئات المرايا المكدسة بنقش (شوتشيكوباي) على ظهرها، رموز ثلاث لصنوبرة وعود خيزران وزهرة برقوق. النقش الذي أسرها منذ وقعت عيناها على المرآة في طفولتها.

قررت انتظار الفرصة المناسبة لسرقة المرآة وإخفائها والاحتفاظ بها إلى الأبد، لكن الفرصة لم تأت أبدًا. ولكم أشقاها شعورها أنها بدافع من غباء تخلت عن جزء من حياتها، وتذكرت القول القديم: "المرآة روح المرأة"، حتى أن كثيرًا من المرايا ينقش على ظهرها الرمز الصيني لكلمة (روح). وخشيت أن المقولة أكثر صحة وواقعية مما كانت نتصور قبلًا. لكنها أخفت ألمها في قلبها، ولم تجرؤ أن تشاركه أحدًا.

عندما أرسل الكهنة مرايا المتبرعات إلى ورشة الصهر واجه الحدادون استحالة في صهر مرآة بعينها، حاولوا إذابتها مرارًا وتكرارًا لكنها أبت أن تنصهر. وتعني تلك الحال أن السيدة التي تبرعت بالمرآة ندمت ولم تقدمها بنفس راضية، فتعلقت روحها الأنانية بالمرآة وحافظت عليها باردة صلبة أمام لهيب الفرن. بالطبع سمع الجميع بالخبر، وسرعان ما عرفوا صاحبة المرآة التي لا تنصهر. واشتعل قلب المرأة المسكينة بالغضب وعانت حرجًا كبيرًا بعدما انكشف سرها، ولما بلغ العار الذي لحق بها مداه قتلت نفسها.

كتبت في رسالة انتحارها: "ستنصهر المرآة بعدما أموت وسيكتمل الجرس، لكن شبحي سيمنح ثروة طائلة لمن يدق ذلك الجرس بقوة حتى يكسره". ويُعتقد في الأثر أن الأمنية أو الوعد الأخيرين لمن يموت أو ينتحر غاضبًا يتحققان بقوة خارقة للطبيعة.

بعدما أذيبت المرآة أخيرًا وصُب الجرس بنجاح تذكر

الناس كلماتها، وكانوا على يقين أن روحها ستمنح ثروة لمن يكسر الجرس. وبالفعل، بمجرد أن علق الجرس في ساحة المعبد ضج المعبد بزحام الوافدين إليه لدق الجرس.

شرع الوافدون جميعًا يدقون شريط الرنين بكل ما أوتوا من قوة وجهد، لكن الجرس أثبت جودته وقاوم هجماتهم بضراوة. ومع ذلك لم ييأس الناس، بل استمرت محاولاتهم يومًا بعد يوم وفي كل ساعة، يدقون الجرس بغضب دون أن يولوا اعتراضات الكهنة أي اهتمام. ولما أصبح صوت الجرس عذابًا مقيمًا لا يتحمله الكهنة، تخلصوا من الجرس رميًا في مستنقع عميق ابتلع الجرس تمامًا.

اختفى الجرس ولم يبق منه سوى أسطورته، (موغن كاني)؛ جرس (موغن).

يؤمن متبعو المعتقدات اليابانية القديمة بعملية عقلية فاعلة تسمى (نازورايرو)، وهو فعل يطلق على العملية وإن كان لا يصفها. ليس للكلمة مقابل عربي مضاه بالضبط، إذ تتعلق بأنواع من سحر (الميمك) وطقوس دينية وروحانية معينة. لكن من المعاني الشائعة ل(نازورايرو) في القواميس: التقليد، والمقارنة، والتشبيه.

أما المعنى الحقيقي فهو أن يتخيل المرء استبدال شيء أو فعل ما بآخر، فينعكس هذا الخيال على الواقع بشكل سحري كأنه معجزة.

على سبيل المثال: ليس معك ما يكفي من المال لبناء

معبد بوذي، لكن يمكنك بسهولة وضع حصاة أمام صورة بوذا بذات شعور التقوى الذي خلق رغبتك في بناء معبد. حينها يتساوى أو يكاد يتساوى فضل وضع الحصاة وبناء المعبد.

ليس بوسعك مثلًا قراءة المجلدات البوذية التي يبلغ عددها سبعة آلاف وسبعمائة وواحد وسبعين مجلدًا، لكن بإمكانك صنع مكتبة دوارة ودفعها بنية خالصة، حينها ستنال الثواب ذاته الذي كنت لتناله إذا قرأت الكتب، هذا هو معنى (النازورايرو).

هناك ممارسات سحرية أخرى تندرج أيضًا تحت فكرة (نازورايرو)، سنوضحها ببعض الأمثلة.

على سبيل المثال، إذا صنعت دمية صغيرة من القش تمثل رجلًا وأحرقتها، سيقاسي أشد آلام الحرق ويموت. تمامًا كقصة (هيلين) التي صنعت تمثالًا صغيرًا من الشمع وثبتته في ساعة الثور (15) بمسامير طولها خمس بوصات في حديقة أحد المعابد.

في مثال آخر، لنفترض أن لصًا تسلل لمنزلك في الليل وسرق أغراضك الثمينة لكنه خلف آثار أقدامه وراءه. إذا أضرمت النار في تلك الآثار ستحترق قدما اللص على الفور، ولن يشفى أبدًا إلا إذا عاد من تلقاء نفسه راجيًا رحمتك. وقصة (موغن كاني) هي مثال آخر على سحر (نازورايرو).

بعدما استقر الجرس في المستنقع استحالت كل فرص كسره. لكن الطامعين في فرصة الثراء شرعوا يدقون ويكسرون أشياء أخري كبديل للجرس، على أمل أن يرضوا صاحبة الروح التي تسببت في كثير من المتاعب.

إحدى الطامعات كانت امرأة تدعى (أوميغاي) اشتهرت في التراث الياباني لعلاقتها ب(كاچيوارا كاغيسوي)، أحد محاربي عشيرة (هيكيه).

ذات يوم وقع (كاچيوارا) في مأزق كبير وكان بحاجة لبعض المال. ولما تذكرت (أوميغاي) أمر جرس (موغن) أخذت وعاء من البرونز وصورته في ذهنها صورة الجرس، ودقته حتى انكسر وهي تصرخ بأنها بحاجة ثلاثمائة قطعة من الذهب. وسمعها أحد نزلاء النزل الذي تسكن به فسأل عن سبب الصراخ، ولما عرف بأمرها أعطاها ثلاثمائة ريو (16) ذهبي. فيما بعد كتبت أغنية عن وعاء (أوميغاي) البرونزي، ما زالت الراقصات تغنيها حتى يومنا هذا.

Umégaë no chōzubachi tataïté

O-kané ga déru naraba

Mina San mi-uké wo

Sōré tanomimasu

"إذا كان دق وعاء (أوميغاي)

سيمنحني ثروة طائلة

لأنفقتها في سبيل حرية رفيقاتي".

بعد تلك الواقعة، ازدادت قصة الجرس شهرة، وحذا كثيرون حذو (أوميغاي) آملين أن يحالفهم الحظ كما حالفها. من بينهم مزارع فاسق عاش في (موغينياما) على ضفة نهر (أويغاوا). بعدما أضاع ثروته في حياة من الفحش، صنع من طين حديقته تمثالًا ل(موغن)، وضربه حتى انكسر بينما يصرخ طالبًا الثروة الكبيرة. فانشقت له الأرض عن امرأة ترتدي ثوبًا أبيضًا وشعرها الطويل ينسدل بحرية، وتحمل جرة مغطاة. قالت له: "لقد أتيت لأجيب صلواتك الحارة الجواب الذي تستحقه، خذ هذ الجرة." ووضعت الجرة بين يديه واختفت.

دخل الرجل إلى منزله سعيدًا ونادى زوجته ليبشرها، ووضع الجرة المغطاة أمامها. فتحاها معًا ووجداها ممتلئة حتى الحافة بـ..

لا! حقًا لا أستطيع إخباركم بم كانت ممتلئة!

جيكينيكي

ذات يوم بينما كان أحد كهنة طائفة (زين) يرتحل وحيدًا في مقاطعة (مينو)، ضل طريقه في منطقة جبلية نائية. تجول الكاهن (موسو كوكوشي) طويلًا بحثًا عن مساعدة لكن دون فائدة، وساوره يأس من إيجاد مأوى يبيت فيه ليلته. لكن أنوار الغسق الأخيرة أرشدته إلى آنچتسو (17) على قمة أحد التلال.

بدا المكان متداعيًا، لكنه أسرع نحوه فرحًا على أية حال. وهناك وجد كاهنًا مسنًا يسكن الآنچتسو فرجاه أن يبيت الليلة. رفض العجوز بقسوة، لكنه دل (موسو) على طريق قرية في الوادي المجاور سيجد فيها الطعام والمأوى. وصل (موسو) إلى القرية التي تتألف من عشرة أكواخ أو أقل، واستقبله عمدة القرية العطوف في بيته. لحظة وصول (موسو) تجمع حوالي أربعين إلى خمسين شخص في غرفة الاستقبال، لكن الخدم سرعان ما رافقوه إلى غرفة صغيرة منفصلة بها فراش، وزودوه بالطعام على الفور.

لشدة إرهاقه، راح (موسو) في النوم في ساعة مبكرة. لكن قبل منتصف الليل بقليل، أيقظه صوت بكاء عال في الغرفة المجاورة. تبعه صوت باب الغرفة ينزلق (18) بلطف ليدخل منه شاب يحمل مصباحًا، حياه باحترام ثم قال: "سيدي الكريم، لقد كنت حتى الأمس مجرد الابن الأكبر لصاحب الدار، أما الآن فيؤسفني إخبارك

أني أصبحت سيدها، فقد مات أبي قبل ساعات قليلة. لم نشأ إخبارك بمصابنا منعًا لإشعارك بأي حرج، خاصة وقد كنت متعبًا. أما الآن، فيجب عليّ إخبارك أن من يجاورونك الغرفة -أهل القرية الذين تجمعوا هنا لتوديع أبي- سيذهبون الآن جميعًا إلى قرية أخرى تبعد حوالي ثلاثة أميال. وأنا الآن أدعوك لمرافقتنا، وأعدك بإيجاد مأوى يناسبك في القرية الأخرى.

إن عاداتنا لا تجيز لنا المبيت في القرية ليلة وفاة أحد منا، بل نرحل تاركين الجثمان وحده بعد إقامة الشعائر والصلوات المناسبين، لأن المنزل الذي تترك فيه الجثة يشهد دائمًا أمورًا غريبة. لكن كونك كاهنًا فربما لا تخشى الشياطين والأرواح الشريرة، إن لم تخش البقاء وحيدًا مع الجثمان فمرحب ببقائك في منزلنا المتواضع بالطبع. لكن أحدًا لن يجرؤ على البقاء هنا الليلة إلا إذا كان كاهنًا".

رد (موسو): "إني ممتن حقًا لنيتك الطيبة وضيافتك الكريمة، وأشعر بغاية الأسف لعدم إخباري بوفاة والدكم عندما أتيت. صحيح أني كنت متعبًا لكن بالتأكيد ليس لدرجة تمنعني من أداء واجبي ككاهن، لو أخبرتموني لأديت الشعائر قبل رحيلكم، أما والأمر كذلك فسأوديها بعدما ترحلون، وسأبقى بجانب الجثمان حتى الصباح. لست أدري كنه كلماتك عن خطر البقاء هنا بمفردي لكني لا أخشى الأشباح ولا الشياطين، لذا لا تقلق بشأني".

بدا على الشاب الاطمئنان والفرح، فشكر الكاهن، ومثله فعل باقي أفراد العائلة بعدما علموا بوعده الكريم.

بعد ذلك قال الشاب سيد القرية: "الآن يا سيدي الكريم نودعك بكل أسف، فقواعد قريتنا تنص على وجوب الرحيل عند منتصف الليل. نرجوك يا سيدي أن تعتني بنفسك كل عناية بينما نعجز عن خدمتك. وإذا سمعت أو رأيت أي شيء غريب في غيابنا أخبرنا به عندما نعود في الصباح".

غادر الجميع المنزل باستثناء الكاهن الذي ذهب إلى غرفة الجثمان. على ضوء مصباح (توميو) وضع القرابين أمام الجثمان وتلا الصلوات المناسبة وأدى الطقوس الجنائزية، ثم دخل في حالة تأمل قضى فيها ساعات من الصمت، وساعده على ذلك هدوء القرية المهجورة.

وسط سكون الليلة المطلق، دخل الغرفة في هدوء كيان ضخم كأنه غول، ما أن لاحظه (موسو) حتى أُلجم لسانه وشلت حركته تمامًا. رأى الغول يرفع الجثمان عن الأرض ويبتلعه بسرعة كما سرعة قط يأكل فأرًا، أكله عن آخره من الرأس حتى العظام بكل شيء فيه حتى الشعر والكفن. وبعدما انتهى الغول من الجثمان تحول إلى القرابين فأكلها، ثم اختفى بالشكل الغامض ذاته الذي ظهر به.

عندما عاد القرويون في الصباح التالي وجدوا الكاهن في

انتظارهم عند باب منزل سيد القرية فحيوه تباعًا، ثم دخلوا إلى الغرفة ونظروا فيها، ولم يبد عليهم أي عجب لاختفاء الجثمان والقرابين.

قال سيد الدار ل(موسو): "نحن في غاية السعادة يا سيدي أن وجدناك على قيد الحياة لم يمسسك سوء، فقد كنا جميعًا قلقين بشأنك. ربما رأيت ليلة أمس ما لا يسر، وقد كان ليسعدنا أن نبقى معك، لكن كما أخبرتك سابقًا فعادات قريتنا تحتم تركنا لها بعد حالات الوفاة، وفي كل مرة انتهك هذا القانون حل الوبال بالقرية. أما عندما نتبعه يختفي الجثمان والقرابين في غيابنا، ولربما رأيت السبب".

قص لهم (موسو) ما حدث، وأخبرهم عن المخلوق الرهيب الذي دخل غرفة الميت وأكل جثمانه وقرابينه، ولم يبد على أحدهم دهشة مما حكى، لكن سيد الدار علق بقوله: "ما تفضلت بسرده يا سيدي الكريم يتفق مع ما روي عن أسلافنا منذ قديم الزمان".

سأل (موسو): "ألا يؤدي الكاهن ساكن التل طقوس الجنازة لمتوفيكم؟".

سأله الشاب: "أي كاهن؟".

أجاب (موسو): "الكاهن الذي أرشدني لمكان قريتكم بالأمس، لقد صادفت آنچيستو على قمة التل، وقد رفض كاهنه استضافتي لكنه دلني على الطريق إلى هنا".

نظر الحضور بعضهم إلى بعض في دهشة، وبعد برهة

صمت قال سيد المنزل: "سيدي، ليس على التل آنچيستو ولا كاهن، هذه منطقة لم يعش فيها الكهنة منذ أجيال".

لم يطل (موسو) الحديث عن هذا الشأن، إذ بدا على مضيفيه الكرماء ظنهم بأن شيطانًا ما تلاعب به. وبعد أن دلوه على الطريق وودعهم، اعتزم (موسو) البحث عن الآنچيستو ليتأكد من حقيقته. بسهولة وجد الآنچيستو، لكن هذه المرة دعاه الكاهن للعجوز للدخول، ثم انحنى له بتواضع وقال: "آه! يا نخجلي! أنا في غاية الخجل!".

قال (موسو): "ليس هناك ما يخجل في رفضك استضافتي. بل على العكس، لقد وجهتني إلى القرية التي عاملني أهلها بلطف كبير، فشكرًا لك على معروفك".

رد الكاهن: "إني لست أهلًا لاستضافة أي إنسان، ولست نخجلًا لرفضي إيوائك، بل لأنك رأيتني في هيئتي الحقيقية؛ أنا من أكل الجثة أمام عينيك ليلة أمس. أنا يا سيدي، (چيكينيكي) (19) . ترأف بحالي ودعني أعترف بسري الذي أوصلني لهذه الحال".

"قبل زمن بعيد كنت الكاهن الوحيد في هذه المنطقة. وكان أهل الجبال من حولنا يحملون موتاهم إلى هنا لأقيم عليهم الشعائر الجنائزية. لكني كنت أقيم تلك الطقوس لأجل المادة فقط، كنت أفكر في المأكل والملبس الذي سأجنيه من عملي المقدس. وجزاء أنانيتي بعثت بعد وفاتي في هيئة (چيكينيكي). وأنا منذ حينها مضطر لأكل جثث

من يموتون في هذه المنطقة كما رأيت ليلة أمس".

"أرجوك يا سيدي الكريم، ساعدني في خلاص روحي. صل لأجلي صلاة (سيغاكي) (20) ، أتوسل إليك، إني أتمنى الخلاص من كياني الفظيع هذا".

ما أن أنهى العجوز رجائه هذا حتى اختفى في اللحظة ذاتها، واختفى معه المكان من حولهما.

وفجأة وجد (موسو كوكوشي) نفسه راكعًا على ركبتيه وحيدً ا بين العشب، وأمامه قبر من طراز غورين ايشي (21) تغطيه الأشنة (22) ، بدا له قبرًا لكاهن.

موجينا

على طريق (أكاساكا) في طوكيو يقع منحدر (كي نو كوني كازا) أو منحدر مقاطعة (كوني)، والحق أني لا أعرف سبب تلك التسمية. على أحد جانبي المنحدر خندق مائي (23) قديم غاية في العمق والاتساع تحيطه ضفاف من الأعشاب الخضراء، وعلى الجانب الآخر جدران قصر امبراطوري شاهقة الارتفاع ممتدة بطول الطريق.

قبل عصر أعمدة الإنارة وعربات (چينريكيشا) (24) كان السكون يخيم على هذا الحي بمجرد حلول الظلام. حتى أن المتأخرين من المارة اعتادوا سلوك طرق طويلة لتفادي المنحدر بعدما تغيب عنه الشمس خشية (الموچينا) (25) التي تتجول في الأنحاء.

آخر من رأى (الموچينا) كان تاجرًا عجوزًا من منطقة (كيوباشي) توفي قبل حوالي ثلاثين عامًا. والقصة كما رواها أنه في إحدى الليالي كان يصعد منحدر (كي نو كوني كوزا) في ساعة متأخرة، ورأى امرأة تجلس القرفصاء وحيدة عند النهر وتبكي. ولما خاف أن تقدم على الانتحار قرر أن يعرض عليها ما بوسعه من مساعدة أو مواساة.

بدت له فتاة رقيقة، ودلته ملابسها الأنيقة وشعرها المرتب أنها من بنات العائلات النبيلة.

ناداها بينما يقترب: "يا آنسة! لا تبكي هكذا يا آنسة! أخبريني بمشكلتك وسأبذل كل جهدي لمساعدتك عن طيب خاطر".

كان الرجل طيب القلب وعنى ما قال فعلًا، لكنها استمرت في البكاء بينما تخفي وجهها خلف كم ثوبها الطويل.

عاد الرجل يقول بلطف: "أرجوك يا آنسة، استمعي إليّ، هذا مكان لا يناسب آنسة شابة وخاصة في هذه الساعة من الليل! لا تبكي أرجوك! أخبريني فقط بما حدث وسأساعدك".

قامت الفتاة ببطء وأدارت ظهرها له بينما تبكي خلف كمها المتدلي.

وضع الرجل يده على كتفها بينما يناديها: "يا آنسة! يا آنسة! اسمعيني لحظة واحدة فقط! يا آنسة!".

في تلك اللحظة التفتت الفتاة نحوه، وتركت كمها ينسدل كاشفًا عن وجهها الذي تربت عليه بيدها.

كشفت وجهًا بلا عينين ولا أنف ولا فم، ما أن رآه الرجل حتى صرخ ولاذ بالهرب. صعد المنحدر في ركض محموم، والعتم والخواء يحيطانه من النواحي كلها، واستمر في الركض دون أن يجرؤ على النظر خلفه، حتى رأى ضوء فانوس بعيد فقرر التوجه نحوه.

اتضح أنه فانوس بائع (سوبا) (26) متجول وضع عربته على جانب الطريق، ولما كان الرجل يتلمس أي ضوء وأي صحبة بشرية بعد التجربة التي خاضها، ألقى نفسه عند قدمي بائع (السوبا) وصرخ:

- "آه! آه!".

قال البائع بغضب: "ما الأمر يا هذا! هل آذاك أحد؟".

همس الرجل بأنفاس متقطعة: "لا، لم يؤذني أحد، الأمر فقط، آه!".

- "الأمر فقط أنهم أخافوك، اللصوص أليس كذلك؟" رد الرجل دون اكتراث.

قال الرجل المرعوب بينما يكافح لالتقاط أنفاسه: "لا، ليس اللصوص، لقد رأيت..رأيت امرأة، عند الخندق المائي، لقد أرتني، آه، لن أستطيع إخبارك ماذا أرتني".

"حسنًا! هل أرتك شيئًا يشبه هذا؟" .

قالها بائع (السوبا) وكشف عن وجه ممسوح من أي ملامح.

في تلك اللحظة، انطفأت الأضواء.

روكوروكوبي

قبل حوالي خمسة قرون كان (إيسوغاي هايدازايمون تاكيتسورا) أحد فرسان الساموراي المكلفين بخدمة السيد (كيكوچي)؛ سيد منطقة (كيوشو).

ورث (إيسوغاي) عن أسلافه مهاراتهم العسكرية وقوتهم الاستثنائية؛ فتفوق منذ صغره في السيف ورمي السهام والرماح، وأظهر أمارات مهارة وجرأة تنبئ بجندي بارع. وعندما شارك في حرب (إيكيو) (27) شابًا تميز عن أقرانه ونال أعلى مراتب الشرف، لكن الخراب حل بدار السيد (كيكوچي)، وأصبح (إيسوغاي) حر نفسه.

كان من السهل لمن هو مثله أن يلتحق بخدمة سيد آخر، لكن (إيسوغاي) لم يكن يسعى لمجد شخصي، بل كان وفيًا لسيده السابق؛ فاختار أن يولي ظهره للعالم الذي عرفه منذ نعومة أظافره. حلق شعره وأصبح كاهنًا رحالًا، واختار لنفسه اسمًا بوذيًا: (كوايريو).

وبدأ حياته الجديدة مرتديًا ثوب الكهنة يخفي تحته قلب الساموراي الذي لم يتغير قط.

صار يزدري المخاطر التي اعتاد الضحك في وجهها في الأيام الخوالي، وشرع يرتحل لينشر المذهب الحق تحت كل ظرف وفي أي فصل. كان يقصد أماكن لا يجرؤ كاهن سواه أن يخطوها؛ فسمت تلك الحقبة من الزمان كان الفوضى والعنف، ولم تكن الطرق آمنة لأي مسافر وإن

كان كاهنًا.

في رحلته الطويلة الأولى، مر بمقاطعة (كاي) (28) . وفي إحدى الليالي بينما يشق طريقه عبر جبال المقاطعة، أدركه الظلام في منطقة مهجورة تبعد أميالًا وأميالًا عن أقرب قرية، فقرر أن يقضي ليله تحت النجوم. وبعدما وجد مكانًا مناسبًا على جانب الطريق، اضطجع وتهيأ للنوم. كان يتقبل العسر بصدر رحب، فلا بأس عنده إذا اعتبر صخرة سريرًا جيدًا، وجذع شجرة صنوبر وسادة ممتازة. كان له جسد من حديد لا يتأثر بالندى أو المطر، ولا يؤذيه الثلج أو الصقيع.

وبعدما استلقى على الأرض مر به رجل يحمل فأسًا وحزمة كبيرة من الحطب، ما أن لاحظ (كوايريو) حتى توقف، وراقبه لوهلة في صمت قبل أن يقول بدهشة:

"من تكون أيها السيد الكريم؟ من الرجل الذي جرؤ على الاستلقاء وحيدًا في مكان كهذا؟ إن هذا المكان مسكون بجحافل من الأرواح الشريرة. ألا تخشى الكائنات المشعرة؟".

أجابه (كوايريو) بابتسامة: "أنا يا صديقي مجرد كاهن رحال، ضيف السحاب والماء (29) كما يقول العامة. وإذا كنت تقصد الثعالب أو الأراقف الشيطانية، فلست أخافها على الإطلاق. أما كون المكان مهجورًا فأمر محبب إلى قلبي؛ فالمهجور من الأماكن أنسبها للتأمل. كما أني

اعتدت النوم في العراء، وتعلمت كذلك ألا أدع للقلق مكانًا في حياتي".

رد الرجل: "إن استلقاءك هنا خير دليل أنك رجل شجاع بحق يا سيدي الكاهن؛ فلهذا المكان سمعة سيئة؛ بالغة السوء والحق يقال! لكن يا سيدي، يقول المثل الشعبي: (لا يعرض الرجل الحكيم نفسه للخطر دون داعٍ)، وأؤكد لك يا سيدي أن نومك هنا مخاطرة كبيرة. لذا اسمح لي أن أطلب منك مرافقتي إلى منزلي على جناح السرعة. صحيح أن بيتي ليس سوى مزرعة مغطاة بالقش وليس به طعام أضيفك به، لكنه على الأقل سقف تنام تحته آمنًا".

لمس (كوايريو) صدق الرجل ولطف حديثه فقبل عرضه وانطلقا في طريقهما. قاده الرجل عبر مسار ضيق يصل الطريق الرئيسي بالغابة الجبلية. كان المسار عرجًا محفوفًا بالمخاطر، فتارة لا يجاورهما سوى المنحدرات، وتارة لا يجدان موضعًا لقدم إلا شباكًا من الجذور الزلقة أو بعض الصخور المتعرجة. وفي النهاية وصلا إلى قمة تلة يسطع القمر في سمائها، ووجد (كوايريو) نفسه أمام كوخ صغير مغطى بالقش تبعث منه أنوار بهيجة.

ذهب الرجلان بعد ذلك إلى مستودع ملحق بالكوخ حيث غسلا أقدامها بماء توصله أنابيب خيزران من الجداول المجاورة. وراء المستودع حديقة خضراوات، وغابة من أشجار الأرز والخيزران يظهر وراءها شلال يتدفق من علٍ بدا في ضياء القمر كثوب أبيض طويل.

عندما دخل (كوايريو) منزل مضيفه رأى أربعة من الرجال والنساء يلتفون حول مدفأة رو (30) صغيرة في الغرفة الرئيسية، ما أن لاحظوا الكاهن حتى انحنوا له احترامًا ورحبوا به في احترام وأدب جمّين. وتعجب (كوايريو) أنهم على دراية بأشكال التحية رغم فقرهم المدقع، وقال لنفسه: "إنهم أناس طيبون. لا بد أن أحدًا من العارفين بقواعد اللياقة علمهم إياها".

توجه (كوايريو) بالحديث إلى مضيفه سيد المنزل - الآروچي كما يدعوه الآخرون- قائلًا: "أتصور من لطف حديثك وترحيبك وأسرتك المهذب أنك لم تعش عمرك حطابًا، ربما كنت من سادة الطبقات النبيلة يومًا ما؟".

ابتسم الحطاب وقال: "صحيح قولك يا سيدي. فقد كنت ذات يوم رجلًا ذا شأن رغم ما تراني عليه الآن من حال. إن قصتي قصة حياة مدمَرة؛ حياة دمرتها بيدي. لقد كنت أخدم دايميو عال الرتبة، لكن شهوتي في النساء والخمر دفعتني إلى أشر الأعمال حتى دمر طمعي البيت وتسبب في موت الكثيرين. ولاحقتني عواقب أفعالي فعشت هاربًا في الأرض. والآن أكثر من الصلاة لعلي أكفر ولو قليلًا عن الشرور التي اقترفتها. لقد حاولت إعادة إعمار البيت الذي خرب، وإن كنت أخشى أنها غاية بعيدة المنال. لكني رغم ذلك أحاول التغلب على ذنوبي بالإخلاص في التوبة، ومحاولتي مساعدة الآخرين قدر المستطاع".

سُر (كوايريو) بنوايا الآروچي الصالحة وقال له: "أيا صديقي، لكم رأيت من رجال ضلوا في شبابهم، لكنهم سلكوا الطريق الصحيح بعدما نضجوا. تقول السوترا المقدسة أن أسوأ الضالين طراً يصبحون أكثر الناس صلاحًا عندما يتحلون بقوة الإرادة. وإني على يقين من طهارة قلبك، وأتمنى لك الخير. سأتلو السوترا لأجلك الليلة، وسأصلي أن تؤتى القوة الكافية للتغلب على الماضي وأخطاءه".

بعدما طمأن (كوايريو) مضيفه بكلماته تلك تمنى له ليلة سعيدة، فأرشده الآروچي إلى غرفة جانبية صغيرة جدًا مجهزة بسرير.

خلد الجميع إلى النوم باستثناء الكاهن الذي جلس يتلو السوترا على ضوء فانوس ورقي، واستمر يتلو ويصلي حتى ساعة متأخرة، وقبل أن ينام فتح نافذة غرفته الصغيرة ليلقي نظرة على الخارج.

كانت ليلة جميلة؛ سماؤها صافية ورياحها هادئة، يلقي قمرها ظلالًا سوداء على الندى فوق أوراق الشجر فيتألق. وأضفى صوت صراصير الليل والسوزوموشي (31) تأثيرًا موسيقيًا على المشهد، خاصة وقد كان يمتزج بصوت خرير ماء الشلال القريب.

عندما سمع (كوايريو) صوت الماء أصابه العطش، ولما تذكر الأنبوب في باحة المنزل الخلفية قرر أن يذهب

ليشرب دون إزعاج الأسرة النائمة. برفق فتح الباب الفاصل بين غرفته وبقية الدار، ثم رأى على ضوء المصباح خمسة أجساد لا رؤوس لها.

وقف الكاهن مرتبكًا للحظة متصورًا وقوع جريمة، لكنه لاحظ عدم وجود دماء، كما أن الرقاب منزوعة الرؤوس لا تبدو عليها آثار نحر. فكر في نفسه: "إما أن الشياطين توهمني بما أرى، وإما أني دخلت بيت روكوروكوبي (32) . ذُكر في (السوشينكي) (33) أن رؤوس الروكوروكوبي إذا نقلت بعيدًا عن أجسادها لن يتمكن الرأس أبدًا من الاتحاد مع بقية الجسد ثانيةً. وذُكر أيضًا أن الرأس عندما يعود بحثًا عن الجسد ولا يجده يضرب نفسه في الأرض ثلاث مرات ويشهق في رعب عظيم، ويموت. الآن إذا كان هؤلاء روكوروكوبي فهم لا ينوون بي خيرًا، لذا أنا مضطر لاتباع تعليمات الكتاب".

أمسك الكاهن بقدمي الآروچي وسحبه نحو النافذة، ثم دفعه منها إلى الخارج. ولما لاحظ أن الباب الخلفي مغلق استنتج أن الرؤوس خرجت من فتحة المدفأة في السقف. فتح الباب بهدوء وتحرك في حذر شديد نحو الحديقة، ومنها إلى الغابة المجاورة. وفي الغابة سمع صوت حديث، فتبع الصوت بينما يتخفى تحت الظلال حتى وصل إلى جذع شجرة اختبأ وراءه. ومن مخبأه رأى الرؤوس الخمسة مجتمعين في حلقة، يتجاذبون أطراف الحديث ويأكلون الديدان وحشرات الأرض.

توقف الآروچي عن الأكل وقال: "آه! ذلك الكاهن الرحال الذي أتى الليلة، يا له من سمين! سيكفينا أن نأكل جميعًا ملء بطوننا. لا أدري أي أحمق كنت عندما قلت له ما قلت، فها هو الآن يتلو السوترا لأجلي ولن نستطيع الاقتراب منه وهو يصلي ويتلو السوترا. لكن الليل يوشك أن ينتهي، ربما خلد للنوم. فليذهب أحدكم إلى المنزل ويرى ماذا يفعل هذا الرجل".

ارتفعت فجأة رأس امرأة شابة، وطارت إلى المنزل بخفة الخفافيش. وبعد دقائق قليلة عادت تصرخ في هلع: "الكاهن ليس في المنزل، لقد غادر! وهذا ليس أسوأ ما في الأمر! لقد أخذ جسد الآروچي ولا أعرف أين أخفاه!".

رأى الكاهن على ضوء القمر ملامح مرعبة ترتسم على وجه الآروچي؛ فاتسعت عيناه بشكل مرعب ووقف شعره، وصارت أسنانه تصطك. ثم دوت منه صرخة بينما يذرف دموع الغيظ وصاح قائلًا: "إن عودتي لجسدي بعدما نُقل مستحيلة. لا مفر الآن من موتي، والسبب ذلك الكاهن! سأموت، لكني سأصل إلى ذلك الكاهن قبل أن أموت، سأمزقه إربًا! سأبتلعه! وها هو ذا يختبئ خلف جذع الشجرة! إني أراه، ذلك الجبان السمين!" وفي اللحظة نفسها انقض رأس الآروچي على (كوايريو) وتلته الرؤوس الأربعة.

لكن الكاهن القوي كان مسلحًا بجذع شجرة صلب، وما إن اقتربت الرؤوس حتى قابلهم الكاهن بضربات هائلة،

أدت إلى فرار أربع منهم. أما الآروچي فظل يحاول رغم إصاباته البالغة أن يصل إلى الكاهن، وتمكن أخيرًا من الإمساك بطرف ثوبه، لكن (كوايريو) سرعان ما أمسك بشعر الآروچي وعالج الرأس بضربات متتالية حتى أنّ أنينًا طويلًا وتوقف عن المقاومة.

لم يفلت الكاهن قبضته إلا عندما تأكد أن الآروچي قد مات، لكن أسنانه بقيت بعد موته مطبقة على ثوب الكاهن الذي فشل في نزع الرأس رغم عظيم قوته.

عاد الكاهن إلى المنزل والرأس معلقة في ثوبه. وعندما دخل رأى الروكوروكوبي الأربعة يجلسون معًا وقد اتصلت رؤوسهم بأجسادهم مرة أخرى، ما أن رأوه عند الباب الخلفي حتى صرخوا: "الكاهن! الكاهن!" وفروا سريعًا عبر الباب الآخر نحو الغابة.

ثم بدأت أشعة الشمس تنير مشرقها مبشرة بنهاية الليل، وقتما تهمين الشياطين.

نظر الكاهن إلى الرأس المعلق في ثوبه، وضحك عاليًا وفكر في نفسه: "يا لها من مياغيه (34) ! رأس شيطان!" ثم جمع متاعه القليل، وهبط من الجبل مواصلًا رحلته.

اتجه شرقًا حتى وصل إلى مدينة (سوا) في (شينانو) (35) ، ودخل شارعها الرئيسي بخطوات جادة والرأس يتدلى فوق ذراعه. أهال المنظر النساء ففقدن وعيهن، وصرخ الأطفال وهربوا، وعمت الضجة والهرج أنحاء

المدينة حتى قبضت الشرطة على الكاهن وأخذوه إلى السجن، ظنًا منهم أن الرأس المعلقة رأس قتيل أمسك بقاتله في لحظاته الأخيرة. عندما استجوبوا (كوايريو) ابتسم ولم يقل شيئًا. فقضى ليلة في السجن قبل أن يمثل أمام قضاة المنطقة.

أمره القضاة أن يشرح قصة الرأس المعلقة على ذراعه، وأي وقاحة شجعته على استعراض جريمته بهذا الشكل أمام الناس.

ضحك (كوايريو) طويلًا بصوت عال ثم قال: "اعلموا أيها السادة إني لم أعلق الرأس في ثوبي، بل علق الرأس نفسه رغمًا عني. وإني لم أرتكب أي جريمة؛ فهذه ليست رأس رجل، بل هي رأس شيطان. أنا لم أرق قطرة دماء واحدة، بل فعلت اللازم لسلامتي وحسب". وقص على القضاة مغامرته بأكملها، وضحك كثيرًا وهو يحكي عن الرؤوس الخمسة. لكن القضاة لم يضحكوا، ورأوا أنه مجرم تجرد من ضميره يحاول إهانة ذكائهم بقصته.

حُكم على (كوايريو) بالإعدام فورًا وبإجماع القضاة، إلا قاضيًا واحدًا. كان قاضيًا طاعنًا في العمر لم ينبس بكلمة طوال المحاكمة، لكنه بعدما سمع حكم زملاءه قام وقال: "لنفحص الرأس بعناية أولًا ثم نبت في الأمر، إذا كان الكاهن صادقًا سيشهد الرأس ببراءته. إليّ بالرأس." أتي بالرأس ووضع أمام القضاة وثوب (كوايريو) الممزق بين أسنانه.

أدار القاضي الرأس بين يديه وفحصه بعناية، فوجد أحرفًا حمراء غريبة على الجزء الخلفي من الرأس وأراها لزملائه. ولاحظ أيضًا أن حواف الرقبة لا تظهر علامات ذبح، بل على العكس؛ كانت علامات انفصالها عن الجسد ناعمة كالفاصل بين ورقة الشجرة وساقها.

بعدما انتهى من فحصه قال القاضي الشيخ: "أنا على يقين أن الكاهن ما قال إلا الحق، هذا رأس روكوروكوبي. ذكر كتاب (هو إي بوتسوشي) أن الروكوروكوبي الحقيقي يُعرف من أحرف حمراء على الجزء الخلفي من رقبته، وها هي الأحرف! تحققوا بأنفسكم أنها لم ترسم، ومن المعروف أيضًا أن تلك الوحوش تقطن جبال مقاطعة (كاي) منذ قرون." ثم تحول إلى (كوايريو) واستطرد: "لكنك يا سيدي أثبتت شجاعة نادرة المثال، ليست من شيم الكهنة إلا قليلًا منهم، وهيئتك هيئة جندي لا كاهن. أكنت فارس ساموراي في سابق الأيام؟".

أجاب (كوايريو): "تخمينك في محله يا سيدي، لقد امتهنت السيف لسنوات لم أخش فيها إنسيًا ولا شيطانًا، كان اسمي حين ذاك (إيسوغاي هيدازايمون تاكيتسورا)، فارس (كيوشو). قد يتذكر بعضكم هذا الاسم". تذكر الحاضرون الاسم على الفور. فسرت همهمات الإعجاب في قاعة المحكمة، ووجد (كوايريو) نفسه محاطًا بأصدقاء لا قضاة، أصدقاء معجبون به مشيدون بشجاعته. واصطُحب الكاهن بعد ذلك كأشراف القوم إلى مقر الدايميو الذي

رحب به بحفاوة، وقدم له هدية ثم سمح له بمغادرة المدينة. وغادر (كوايريو) وهو في أسعد ما قد يكونه كاهن في هذا العالم الفاني، أما الرأس فأخذه معه معتزمًا تقديمه كمياغيه.

بقي أن نحكي مصير الرأس.

بعد يوم أو يومين من مغادرته (سوا) وبينما يمر (كوايريو) بمنطقة نائية، قطع طريقه لص طلب منه أن يتجرد من ملابسه. نخلع الكورومو (36) امتثالًا لأمره، لكن اللص رمى الثوب وتراجع في رعب بمجرد أن رأى الرأس المعلق.

صرخ اللص قائلًا: "كيف لك أن تكون كاهنًا؟ إنك أسوأ مني بما لا يقاس! صحيح أني أزهقت أرواحًا، لكن أبدًا لم أمش برأس قتيل معلقة على ذراعي! حسنًا يا سيدي الكاهن، أما ونحن متساويان على أن أبدي إعجابي بك! هذا الرأس سيفيدني، يمكنني إخافة الناس به. أترغب في بيعه؟ سأشتريه منك مقابل خمس ريوات، وسأعطيك ثوبي مقابل الكورومو".

أجابه (كوايريو): "إذا كنت مصرًا فسأترك لك الثوب والرأس، لكن اعلم أن هذه رأس شيطان لا إنسان، إذا واجهتك أية مشاكل بعد شراءه تذكر أني لم أخدعك".

صاح الرجل: "يا لك من كاهن رائع! تقتل رجلًا وتمزح! لكني جاد في عرضي، هاك الثوب وهاك المال. أعطني

الرأس دون أن نضيع وقتنا في المزاح".

قال (كوايريو): "خذه، لكني لم أكن أمزح. المزحة الوحيدة أنك دفعت مالًا لتشتري رأس شيطان." ثم أطلق ضحكة عالية، ومضى في طريقه.

هكذا حصل اللص على الرأس والكورومو، وانتحل لفترة شخصية كاهن يمشي في الطرق حتى وصل (سوا) وعرف حقيقة الرأس الرهيبة. ولما خاف أن تجلب له روح الروكوروكوبي المتاعب قرر أن يعيدها من حيث جاءت ويدفنها مع جسدها. شق اللص طريقه نحو الكوخ الوحيد في جبال (كاي)، لكنه وجده مهجورًا عندما وصل إليه، ولم يستطع إيجاد الجسد.

فدفن الرأس في الغابة خلف الكوخ، وأقام نصبًا فوق القبر، وأدى صلاة (سيغاكي) على روح الروكوروكوبي.

ولا زال نصب روكوروكوبي شاهدًا على القصة حتى اليوم، على الأقل حسبما روى القصاص الياباني.

سر ميت

في قديم الزمان عاش في مقاطعة (تامبا) تاجر ثري يدعى (إينامورايا جينسوكي).

كانت له ابنة جميلة ذكية اسمها (أوسونو)، ولذكائها وجمالها رأى أنها تستحق ما هو أكثر من التتلمذ على يد معلمي الريف، لذا أرسلها برفقة بعض الثقات إلى (كيوتو) لتتلقى دروس المهارات (37) التي تتلقاها سيدات العاصمة. وبعدما أنهت تعليمها تزوجت من صديق للعائلة، تاجر يدعى (ناغارايا). وعاش الزوجان في سعادة قرابة أربع سنوات رزقا فيها بصبي واحد. لكن (أوسونو) مرضت وماتت في السنة الرابعة لزواجهما.

في الليلة التي تلت جنازة (أوسونو) قال طفلها أن أمه عادت، وأنه رآها في غرفتها بالطابق العلوي تبتسم له في صمت، فخاف وهرب. صعد بعض أفراد العائلة إلى الغرفة، ليفاجئوا بهالة من نور هيئتها هيئة الأم المتوفاة. رأوها تقف أمام تانسو (38) لا زالت تحوي مجوهراتها وملابسها. رأوا رأسها وكتفيها بوضوح شديد، أما الجزء السفلي من جسدها فكأنما تلاشى في النور، كأن هالته انعكاس مشوش كالظل على الماء.

خاف الأهل فخرجوا من الغرفة ومن البيت بأكمله، واجتمعوا خارجه.

قالت حماة (أوسونو): "نحن النساء نحب متعلقاتنا الخاصة، وقد كانت (أوسونو) متعلقة جدًا بحاجياتها. ربما عادت لتلقي نظرة أخيرة، كثير من الأموات يفعلون هذا. فلنتبرع بثيابها وحليها للمعبد، لربما تجد روحها السلام." واتفقوا على منح كل شيء للمعبد في أقرب وقت ممكن.

في الصباح التالي أفرغوا الأدراج، وأخذوا كل ممتلكات (أوسونو) من مجوهرات وثياب إلى المعبد. لكن (أوسونو) عادت في الليلة التالية وأخذت تنظر إلى الخزانة بالشكل ذاته، وعادت في الليلة التي تلتها، ثم التي تلتها، وظلت تأتي كل ليلة حتى أصبح المنزل بيت رعب. ولم تجد حماة (أوسونو) بعد ذلك بدًا من الذهاب إلى أحد معابد طائفة (زين) البوذية، فقصدت كبير الكهنة وأخبرته بما يحدث طلبًا لمشورته.

كان رئيس الكهنة عجوزًا مثقفًا يدعى (دايغن أوشو)، قال لها: "لا بد أن هناك شيئًا يقلقها، وهذا الشيء موجود في التانسو أو حوله".

ردت الحماة: "لكننا أفرغناه من كل محتوياته، التانسو فارغ تمامًا".

قال (دايغن أوشو): "حسنًا، سآتي إلى بيتك الليلة وأراقب تلك الغرفة، وسأرى ما بإمكاني فعله. ولا يدخلن أحد الغرفة في وجودي إلا إذا طلبت أنا ذلك".

بعد الغسق ذهب (دايغن أوشو) إلى منزل العائلة

فوجد غرفة معدة له، جلس فيها وحده يقرأ السوترا (39) حتى الواحدة بعد منصف الليل. حينها ظهر شبح (أوسونو) فجأة أمام التانسو يحدق فيه بعينين حزينتين. ردد الكاهن صلاة مقدسة ثم نادى شبح (أوسونو) باسمها وقال: "لقد أتيت لمساعدتك، هل هناك ما يثير قلقك في هذا التانسو؟ شيء يمكن أن أبحث عنه؟" وافق الشبح بحركة خفيفة من رأسه فنهض الكاهن وفتح الدرج العلوي، لكنه وجده فارغًا. فتح الثاني ثم الثالث والرابع، وبحث بعناية شديدة لكنه لم يجد شيئًا. وظل الشبح واقفًا يحدق في التانسو بذات النظرة.

فكر الكاهن، ترى ماذا تريد؟

فجأة تبادر إلى ذهنه احتمال وجود شيء تحت المفارش التي تغطي أرضيات الأدراج؛ فأزال مفرش الدرج الأول لكنه لم يجد شيئًا، وكذلك الثاني والثالث. وأخيرًا وجد خطابًا تحت مفرش الدرج الأخير.

سأل الكاهن الشبح: "أهذا ما يقلق راحتك؟".

التفت الشبح ناحية الكاهن وتعلقت أنظاره الباهتة بالخطاب.

سأل الكاهن: "أسيريحك إحراقه؟".

أومأ الشبح بالإيجاب.

- "سأحرقه صباح الغد. وأعدك أن أحدًا لن يقرأه

سواي".

ابتسم الشبح واختفى.

شقشق الصبح فهبط الكاهن الدرج ليجد العائلة تنتظره في قلق.

- "لا تقلقوا، لن تروها ثانيةً".

وبالفعل، لم تظهر أبدًا بعد ذلك.

كان الخطاب رسالة حب كُتبت إلى (أوسانا) عندما كانت تدرس في (كيوتو). لكن وحده الكاهن من علم فحواه، وبموته مات السر معه.

يوكي أونا

في إحدى قري مقاطعة (موساشي) عاش حطابان؛ (موساكو) العجوز ومساعده (مينوكيشي) ذو الثمانية عشر ربيعًا.

كان الحطابان يذهبان معًا كل يوم إلى غابة تبعد حوالي خمسة أميال عن قريتهما. ويقابلان في الطريق إلى تلك الغابة نهرًا واسعًا يعبرانه بعبّارة ركاب. كثيرًا ما حاول الناس استبدال تلك العبّارة بجسر، لكن لم يتمكن أي جسر من مقاومة التيار عندما يرتفع مستوى المياه، فكان الفيضان-في كل مرة- يحمل تلك الجسور بعيدًا.

وذات مساء قارس البرودة هبت عاصفة ثلجية عاتية بينما (موساكو) و(مينوكيشي) في طريق العودة إلى المنزل. عندما وصلا إلى النهر اكتشفا أن سائق العبارة قد غادر تاركًا العبارة على الجانب الآخر من النهر. وبالطبع لن يعبرا النهر سابحين في هذا البرد، فقررا اللجوء إلى كوخ السائق شاكرين حظهما أن وجدا مكانًا يأويهما.

كان للكوخ باب واحد يقود إلى غرفتي نوم بلا نوافذ، ولم يكن به مدفأة أو حتى قدر يصلح لإشعال الحطب بداخله. أغلق (موساكو) و(مينوكيشي) الباب واستلقيا وتغطيا بمعطفيهما. لم يكن شعورهما بالبرد كبيرًا في البداية وظنا أن العاصفة لن تطول على أي حال.

نام العجوز على الفور، أما (مينوكيشي) الشاب فبقي

مستيقظًا لفترة طويلة يستمع إلى الرياح العاتية وصوت الثلج يصطدم بالباب دون توقف. كان الكوخ يهتز لنجيخ (40) النهر كقارب يتأرجح في بحر متلاطم الأمواج. العاصفة رهيبة والهواء يزداد برودة في كل لحظة، و(مينوكيشي) يرتجف تحت معطفه. لكنه في النهاية ورغم البرد، غط في النوم هو الآخر.

أيقظته زخة من الثلج على وجهه، لقد فُتح باب الكوخ. وفي الوهج الناعم للثلج (41) ، رأى امرأة متشحة بالأبيض من رأسها حتى أخمص قدميها.

رآها منحنية فوق (موساكو) تغمر وجهه بأنفاسها، وزفيرها أشبه بدخان أبيض ساطع. في تلك اللحظة التفتت ناحية (مينوكيشي)، ثم وقفت إلى جواره. حاول أن يصرخ، لكن صوته احتبس في حلقه. انحنت المرأة البيضاء فوقه أكثر وأكثر حتى كاد وجهاهما يتلامسان، ورغم خوفه من عينيها اللتان تحدقان به رأى (مينوكيشي) أنها بارعة الحسن. وفجأة ابتسمت وقالت: "كنت أنوي لك ذات مصير معلمك، لكن في قلبي بعض شفقة عليك. صغير أنت يا (مينوكيشي)، وفتى جميل، لن أؤذيك الآن. لكن إذا أخبرت أي شخص -حتى أمك- بما رأيت الليلة، فسأعرف، وسأقتلك، تذكر هذا".

تحولت عنه وخرجت من الباب فاستعاد قدرته على الحركة. قفز الشاب من مكانه وألقى نظرة إلى الخارج فلم

ير سوى الثلج يهاجم الكوخ بعنف، أما المرأة فلم يكن لها أي وجود. أغلق (مينوكيشي) الباب وأحكم إغلاقه بعدة قطع من الخشب متسائلًا إذا كانت الرياح هي المتسببة في فتح الباب. ربما توهم في ضوء الثلوج امرأة بيضاء، وربما كان يحلم. لم يستطع التأكد من شكوكه فنادى على العجوز في رعب، ولما لم يرد (موساكو) مد (مينوكيشي) يده في الظلام ولمس وجهه فوجده باردًا كالثلج. لقد استحال (موساكو) جثة هامدة.

انتهت العاصفة عند الفجر، وعندما عاد السائق إلى كوخه بعد شروق الشمس بقليل وجد (مينوكيشي) مغشيًا عليه جوار جثة (موساكو) المتجمدة. اعتنى السائق بأمر (مينوكيشي) الذي استعاد وعيه سريعًا، لكن برودة تلك الليلة المرعبة ألزمته الفراش لفترة طويلة. أثر فيه خوفه الشديد بعد وفاة العجوز أيضًا، لكنه لم يذكر شيئًا عن المرأة البيضاء. بعدما استعاد عافيته استأنف (مينوكيشي) عمله ثانيةً، يذهب وحده كل صباح إلى الغابة ويعود مع غروب الشمس محملًا بالحطب الذي تساعده والدته في بيعه.

وفي إحدى ليالي الشتاء التالي صادف (مينوكيشي) في طريق عودته إلى المنزل فتاة تسلك الطريق ذاته. كانت آية في الجمال؛ طويلة نحيلة القوام، وكشف ردها تحيته عن صوت عذب كعصفور مغرد؛ فسارا متجاورين يتجاذبان أطراف الحديث.

أخبرته الفتاة أن اسمها (أويوكي) وأنها فقدت والديها مؤخرًا، وتعتزم الذهاب إلى العاصمة عند أقارب لها قد يساعدونها في إيجاد وظيفة خادمة. سرعان ما شعر (مينوكيشي) بسحر الفتاة يتملكه، وكلما نظر إليها ازدادت جمالًا في عينيه. سألها إذا كانت مخطوبة فأجابته أنها عزباء، وسألته بدورها إذا كان متزوجًا أو له خطيبة، فأخبرها أنه وعلى الرغم من عدم إعالته إلا لوالدته الأرملة، إلا أنه لم يضع الزواج عين الاعتبار، ولصغر سنه لم تطلب منه أمه إيجاد "زوجة ابن محترمة".

سارا طويلًا بعد هذين الاعترافين دون أن يتحدثا. لكن كما يقال، "إذا أراد القلب، تكلمت العيون" (42) . ووصلا إلى القرية والسعادة تغمرهما.

عرض (مينوكيشي) على (أويوكي) أن تستريح في منزله قليلًا، وبعدما ترددت في نجل ذهبت معه، واستقبلتها والدته بحرارة وأعدت لها وجبة دافئة. كانت (أويوكي) ضيفة غاية في التهذيب حتى أن والدة (مينوكيشي) أحبتها وتعلقت بها، وأقنعتها بتأجيل رحلتها للعاصمة. والنهاية الطبيعية كانت أن (أويوكي) لم تذهب للعاصمة أبدًا، بل بقيت في ذات المنزل "زوجة ابن محترمة".

والحق أن (أويوكي) أثبتت على مر السنين أنها زوجة ابن محترمة جدًا. حتى أن آخر كلمات والدة (مينوكيشي) عندما حان أجلها بعد خمس سنوات من الزواج كانت كلمات ثناء على زوجة ابنها. أنجبت (أويوكي) لزوجها

خمسًا من البنين ومثلهم من البنات، عشر أطفال في غاية الجمال والبياض. كان أهل القرية يعتبرون (أويوكي) امرأة مذهلة، فطبيعتها تختلف عن طبيعة الفلاحات اللواتي يشخن في سن مبكرة. أما هي فحتى بعدما أنجبت عشرة أطفال كانت تبدو شابة نضرة، تمامًا كما بدت عندما أتت إلى القرية للمرة الأولى.

وفي إحدى الليالي بعدما نام الأطفال، جلست (أويوكي) تحيك على ضوء الفانوس بينما يراقبها (مينوكيشي) الذي قال: "إن رؤيتك تحيكين على ضوء المصباح والنور يضيء وجهك ذكرتني بأمر عجيب حدث عندما كنت في الثامنة عشرة من عمري. رأيت سيدة جميلة بيضاء البشرة، مثلك تمامًا، كانت تشبهك إلى حد كبير".

ردت (أويوكي) دون أن ترفع عينيها عن الثوب الذي تحيكه: "أخبرني عنها، أين رأيتها؟".

قص عليها (مينوكيشي) قصة الليلة المرعبة التي قضاها في الكوخ، وعن المرأة البيضاء التي انحنت فوقه، وعن ابتسامتها وهمسها، وعن موت (موساكو).

وعلق: "لم أر في حياتي امرأة تضاهيك جمالًا سواها، لكنها لم تكن إنسية بالطبع. لكم كنت خائفًا منها، لكم كنت مرعوبًا! كانت بيضاء جدًا! على أني لست متأكدًا حتى اللحظة إذا كنت قد رأيت سيدة الثلوج أم كان هذا حلمًا".

رمت (أويوكي) الثوب على الأرض ونهضت، ثم انحنت فوق (مينوكيشي) حيث جلس وصرخت في وجهه: "لقد كانت أنا! كانت (يوكي)! أنا! لقد أنذرتك أنك ستموت إذا تفوهت بكلمة عما رأيت! لولا هؤلاء الأطفال النائمين بالداخل لقتلتك الآن وعلى الفور! لكنهم مسؤوليتك الآن، عليك أن تعتني بهم على خير وجه. إذا ضايقتهم بأي شكل ستلقى مني ما تستحق".

صرخت صراخًا رفيعًا كصوت ريح منتحبة، ثم تحولت إلى ضباب أبيض ساطعًا ارتفع إلى سقف البيت، واختفت عبر الدخان، ولم يرها أحد إلى الأبد.

قصة أوياغي

في حقبة (بومي) (43) التحق فارس الساموراي الشاب (توموتادا) بخدمة سيد (نوتو) السيد (هاتاكيكاما يوشيموني).

كان (توموتادا) من (إيتشيزن) في الأصل، لكنه أُخذ إلى قصر دايميو (نوتو) في سن صغيرة، وهناك تعلم فنون السلاح تحت إشراف الأمير.

وعلى مر السنين، أثبت أنه تلميذ كفئ وجندي بارع مستحق لنعمة أميره عليه. وبفضل شخصيته الودودة وجاذبيته الساحرة إضافة إلى وسامته الفائقة كان محبوبًا من زملاءه فرسان الساموراي.

وعندما كان (توموتادا) في العشرين من عمره أُرسل في مهمة خاصة إلى أحد أقرباء سيده، إلى السيد (هوسوكاو ماساموتو) دايميو (كيوتو) العظيم. ولما كانت (إيتشيزن) في طريقه، طلب الشاب إذنًا أن يزور والدته الأرملة. لكن بداية رحلته زامنت أشد أوقات العام برودة، ورغم قوة حصانه لم يستطع إلا التحرك ببطء. ومضى في طريقه الممتدة عبر منطقة جبلية قليلة المستوطنات.

في اليوم الثاني من رحلته وبعد ساعات طويلة مرهقة، أدرك أنه لن يصل إلى مكان استراحته حتى وقت متأخر من الليل. أخافه الإرهاق البادي على حصانه، وكذلك

الرياح الباردة التي تنبئ بعاصفة ثلجية ثقيلة. وفي تلك اللحظات الصعبة لمح (توموتادا) منزلًا صغيرًا من القش يتخفى على قمة تل قريب بين أشجار الصفصاف.

بصعوبة حث حصانه المتعب على المضي نحو المنزل حتى وصلاه. دق الشاب بقوة على الباب المغلق ففتحت له امرأة عجوز ما أن رأته حتى صاحت بشفقة: "آه! يا للمسكين! شاب يسافر وحده في مثل هذا الطقس السيء! تفضل بالدخول أيها السيد الشاب".

ترجل (توموتادا) عن حصانه وقاده إلى حظيرة في باحة المنزل الخلفية، ثم دخل المنزل فرأى عجوزًا وفتاة يستدفئان حول نار من قصب الخيزران. دعاه العجوزان باحترام أن يقترب من النار، وقدما له بعض نبيذ الأرز وطعامًا دافئًا، ثم سألاه عن رحلته. لاحظ (توموتادا) أن الفتاة اختفت خلف باب، كما لاحظ جمالها الفاتن رغم ثيابها البالية وشعرها الطويل الذي لا تبدو عليه أي عناية. وتساءل؛ كيف لفتاة في جمالها أن تعيش في مكان مزر كهذا؟

قال له العجوز: "سيدي الكريم، إن أقرب قرية تبعد عنا أميالًا، والبرد قارس والثلوج تتساقط بلا توقف، من الخطر أن تمضي في طريقك الليلة. إننا نعجز عن تقديم أي سبل راحة لك، ونعرف أن بيتنا ليس جديرًا باستضافتك، لكن نرجو أن تبقى تحت سقفنا الليلة ضمانًا لسلامتك وسلامة حصانك الذي سنحسن العناية به".

قبل (توموتادا) العرض وقد سعد سرًا بالفرصة التي أتيحت له ليرى الفتاة أكثر. وعندما حان وقت العشاء قدمت الأسرة الطعام، وخرجت الفتاة من وراء الباب لتصب لهم النبيذ. كانت ترتدي ثوبًا من الكتان المحلي، خشن لكن نظيف، ومشطت شعرها الطويل فانساب بنعومة على وجهها. وعندما انحنت إلى جانبه لتملأ كأسه فوجئ (توموتادا) أنها أجمل من أي امرأة رآها في حياته، وكأن لكل التفاتة تلفتها سحرها الخاص.

اعتذر أهلها نيابة عنها بقولهم: " نرجو أن تعذر سذاجتها وجهلها يا سيدي؛ فقد نشأت ابنتنا (أوياغي) وحيدة هنا في الجبال ولا تعرف شيئًا عن خدمة الضيوف." لكن (توموتادا) احتج قائلًا إن من حسن حظه أن تخدمه فتاة بجمالها. لكنه يذق الطعام أو النبيذ، إذ لم يتمكن من تحويل بصره عن الفتاة حتى بعدما لاحظ أن نظراته أضفت على وجهها حمرة الخجل.

قالت له الأم: "سيدي الكريم، أعرف أن طعامنا الريفي ليس طيبًا، لكن حاول أن تتناول ولو قليلًا من الطعام والشراب، أنت بحاجة لهما بعدما تعرضت للبرد الشديد بالخارج." وإرضاء لمضيفيه، أكل (توموتادا) وشرب قدر ما استطاع، لكن سحر الفتاة الخجلة تملك منه بالكامل.

عندما تحدث معها، وجد أن كلامها لا يقل جمالًا عن وجهها. فرغم نشأتها وسط الجبال إلا أن والديها كانا من طبقة عالية في الماضي، فكلامها وحركاتها كما بنات النبلاء.

وبوحي من السعادة التي ملأت قلبه ألقى عليها أبيات شعر تحوي سؤالًا واحدًا:

“Tadzunétsuru,

Hana ka toté koso,

Hi wo kurasé,

Akénu ni otoru

Akané sasuran?”

"في طريقي إلى زيارة

صادفت من بدت كزهرة

أمضيت اليوم معها

ولست أعرف الآن حقا

لماذا يلمع الفجر

بلون الشفق؟"

فأجابته دون لحظة تردد:

“Izuru hi no

Honoméku iro wo

Waga sodé ni

Tsutsumaba asu mo

Kimiya tomaran."

"سأخفي بمعطفي

الشفق الوردي

عن عيني سيدي

حتى يبقى في الصباح".

علم (توموتادا) من كلماتها أنها قبلت إعجابه بها. وبقدر ما كان سعيدًا، بقدر ما أدهشته بلاغة الأبيات التي أعربت بها عن مشاعرها. لم يكن يحلم أن يقابل في يوم من الأيام فتاة في مثل جمال وذكاء الماثلة أمامه، فضلًا عن الفوز بها بالطبع. صوت في قلبه أخبره أن الآلهة أنعمت عليه بحظ كبير أن وقعت في طريقه، وأن عليه استغلال حظه هذا. كان مسحورًا باختصار، مسحور لدرجة أنه قرر على الفور أن يطلب يدها من والديها، فأخبرهما باسمه ونسبه ورتبته في خدمة السيد (نوتو).

انحنيا أمامه بدهشة وامتنان باديين، وبعد لحظات من التردد الظاهري رد الأب: "سيدي الكريم، إن طلبك هذا لهو لشرف كبير أعجز عن وصفه. لكنك رجل له مرتبته التي ستزداد رفعة مع الوقت، وابنتنا من أصل بسيط، مجرد فتاة ريفية لم تحظ بأي تعليم ولا تصلح زوجة لفارس ساموراي نبيل. إن من غير اللائق حتى التحدث في هذا الأمر، لكن نظرًا لأن الفتاة تناسبك ولأنك قد عفوت بكرمك عن جهلها بقواعد اللياقة، يسعدنا تقديمها

لك خادمة، تحت تصرفك السامي".

أشرقت شمس الصباح عن سماء صافية بعدما انتهت العاصفة. لن يستطيع (توموتادا) التأخر أكثر حتى لو أخفت (أوياغي) الشفق الوردي بأكمامها عن عيني حبيبها. لكنه لم يسلم لفكرة وجوب ابتعاده عن الفتاة، فخاطب والديها بهذه الكلمات بعدما حزم متاعه.

"من غير اللائق أن أطلب أكثر مما منحتماني، لكني لا أستطيع منع نفسي من طلب يد ابنتكما مرة أخرى، فإنه يشق عليّ فراقها الآن. وبما أنها مستعدة لمرافقتي سآخذها على حالتها هذه إذا سمحتما لي. إذا منحتماني إياها سأكرمكم كوالديّ. أرجو منكما أيضًا أن تقبلوا هذه كتعبير بسيط عن امتناني لكرم ضيافتكما". قال هذا بينما يضع أمام مضيفه كيسًا من الريوات الذهبية.

سجد العجوز عدة مرات بين يدي الساموراي ثم دفع الهدية برفق وقال: "لسنا بحاجة للذهب يا سيدي، فنحن لا نشتري شيئًا هنا ولن نستطيع إنفاق مبلغ كبير كهذا على أنفسنا، وربما احتجت لهذا المال في رحلتك الباردة الطويلة. أما بالنسبة للفتاة فقد منحناك إياها هدية بالفعل. إنها لك، فلا حاجة لأن تستأذننا في أخذها، وكذلك فقد أعربت هي عن رغبتها في مرافقتك وخدمتك طالما رغبت أنت في ذلك. نحن سعيدان جدًا بقبولك لها. ونأمل ألا يزعجك تقصيرنا، فنحن لم نستطع تجهيزها بكسوة مناسبة فضلًا عن مهر بالطبع. لقد كنا لنفارقها قريبًا على أي حال

فنحن طاعنان في السن، من حسن حظنا أنك ستأخذها معك".

عبثًا حاول (توموتادا) إقناع العجوزين بقبول هديته لكن كل جهوده باءت بالفشل، فهما لا يهتمان بشأن المال على الإطلاق، وليست لهما رغبة إلا في أن يأخذ ابنتهما معه، وهكذا فعل. بعدما وضع الفتاة على الحصان وبينما يودع العجوزين بامتنان صادق قال له الأب: "نحن الممتنان لك أيها السيد الكريم، وواثقان من عطفك عليها، ومطمئنان عليها بصحبتك".

(يوجد هنا في النص الأصلي باللغة اليابانية قطع في السير الطبيعي للسرد، ما يجعل القصة غير متناسقة بشكل غريب. لم يُذكر شيء آخر عن والدة (توموتادا)، أو والدي (أوياغي)، أو دايميو (نوتو). يبدو أن الكاتب تعب من الكتابة في هذه النقطة وأسرع بإنهاء القصة دون اهتمام. لا أستطيع تقديم التفاصيل الناقصة أو إصلاح الأخطاء الهيكلية في القصة، ولكن يجب عليّ إضافة تفصيلة توضيحية لن تكتمل القصة دونها. يبدو أن (توموتادا) اتخذ قرارًا جريئًا بأخذه (أوياغي) إلى (كيوتو)، وهو ما أوقعه في ورطة. ولكنا لا نعلم أين عاش الاثنان بعد ذلك).

لم يكن يسمح للساموراي بالزواج دون موافقة سيده، وتعذر على (توموتادا) الحصول على هذه الموافقة قبل إنهاء مهمته. وخشي أن جمال (أوياغي) سيكون خطرًا عليهما

قد يؤدي إلى إبعادها عنه. في (كيوتو) حاول (توموتادا) إخفاء فتاته عن الأعين، لكن ذات يوم مشؤوم تتبع (أوياغي) أحد أتباع اللورد (هوسوكاوا) واكتشف علاقتها ب(توموتادا) فأبلغ الأمر إلى الدايميو. ولما كان الدايميو أميرًا شابًا مولعًا بالحسناوات أرسل في طلب الفتاة، فأحضرت إليه على الفور دون أي مراسم.

وحزن (توموتادا) أيما حزن، لكنه كان يعرف أنه عاجز، فما هو إلا مجرد رسول في خدمة دايميو بلاد بعيدة، والآن هو تحت رحمة دايميو أكثر قوة لا يُسأل عما يفعل.

كان (توموتادا) يدرك أيضًا أنه تصرف بغباء، وأنه جلب على نفسه الشقاء عندما ارتبط بعلاقة سرية تدينها القواعد العسكرية. كان أمله الوحيد والأخير أن تكون (أوياغي) قادرة على الهرب معه ومستعدة لذلك. وبعد كثير تفكير قرر أن يبعث لها برسالة، وهي محاولة خطرة بالطبع، فقد تجد الرسالة طريقها إلى يد الدايميو، ورسالة حب تخاطب أيًا من ساكنات قصر الدايميو جريمة لا تغتفر.

لكنه قرر المجازفة، وألف لها قصيدة صينية من ثمانية وعشرين رمزًا فقط، لكنهم كافيين للتعبير عن عمق عاطفته وألم الفقد الذي يقاسيه.

Kōshi ō-son gojin wo ou;

Ryokuju namida wo tarété rakin wo hitataru;

Komon hitotabi irité fukaki koto umi no gotoshi;

Koré yori shorō koré rojin

"هو ذا الأمير الشاب يتبع الفتاة اللامعة كجوهرة

رغم دموعها الجميلة التي أغرقت ثوبها.

أما الساموراي الذي شغفه حبها، وسكن قلبه عشقها

فالفاجعة فاجعته وحده

وما له من حيلة إلا أن يمشي وحده طريق القدر".

واستدعي (توموتادا) إلى حضرة اللورد (هوسوكاوا) مساء اليوم الذي أرسل فيه رسالته.

أسقط في يد الساموراي عندما علم أن سره قد فضح، وظن أن الدايميو قرأ رسالته وسينزل به أشد العقاب. فكر في نفسه: "بالتأكيد سيأمر بقتلي، لكني لست أهتم بحياتي دون (أوياغي). لكن إن كان لا بد من موتي، سيموت (هوسوكاوا) معي." وأدخل سيفه في حزامه ثم أسرع إلى القصر.

عندما دخل البهو رأى الأمير (هوسوكاوا) فوق عرشه محاطًا بفرسان ساموراي عاليي الرتبة في ثيابهم الرسمية. كان الجميع صامتين كالحجارة، وبينما يتقدم (توموتادا) للسجود للأمير أحس بالصمت المخيم ثقيلًا مشؤومًا، كهدوء ما قبل العاصفة. لكن (هوسوكاوا) نزل عن

عرشه، وأمسك بذراع الشاب، وشرع يتلو كلمات القصيدة. عندما رفع (توموتادا) عينيه عن الأرض، رأى عينا الأمير تترقرقان بدموع الرحمة.

قال الأمير: "إنكما تحبان بعضكما كثيرًا، لذا قررت أن آذن بزواجكما نيابة عن قريبي سيد (نوتو). سيعقد زفافكما أمامي الآن، الضيوف مجتمعون والهدايا جاهزة." وبإشارة من الأمير فُتح باب الغرفة المجاورة للقاعة، ورأى (توموتادا) في البلاط جمعًا من الشخصيات الهامة يترقبون الحفل، تتوسطهم (أوياغي) بزي العروس.

وهكذا أعيدت (أوياغي) إليه في زفاف سعيد، وقدم الأمير وأسرته هدايا ثمينة للزوجين.

عاش (توموتادا) و(أوياغي) في سعادة لخمس سنوات. لكن ذات صباح وبينما تتبادل (أوياغي) أطراف الحديث مع زوجها حول بعض أمور المنزل صرخت في ألم، واصفر وجهها وسكتت تمامًا. وبعد لحظات همست بصوت ضعيف: "اعذرني لصراخي، لكن الألم باغتني! زوجي العزيز، إن حياتنا معًا هي امتداد لعلاقة جمعتنا في حياة سابقة، وسنجتمع ثانية في حياة قادمة، أما حياتنا معًا الآن فقد انتهت، حان وقت الفراق. أرجوك، صل صلاة (النيمبوتسو) لأجلي بعدما أموت".

صرخ الزوج في ارتباك: "ما هذه الأفكار الغريبة يا عزيزتي! أنت فقط متعبة قليلًا، اضطجعي قليلًا

وستتحسنين بعد قسط من الراحة".

فردت: "لا لا! أنا لست واهمة! إني أعرف أني سأموت الآن، لذا يجب أن أخبرك بالحقيقية يا زوجي العزيز. أنا لست إنسية، بل روح شجرة روحي، وقلب شجرة قلبي، وعصارة الصفصاف حياتي. وفي لحظتنا هذه يقطع شخص ما شجرتي بقسوة موجبًا موتي. إني لا أقوى حتى على البكاء! بسرعة، صل (النيمبوتسو) لروحي، بسرعة! بسرعة!".

أطلقت صرخة ألم أخرى، ثم حولت رأسها الجميل جانبًا محاولةً إخفاء وجهها خلف كم ثوبها. وفي اللحظة ذاتها، انهار جسدها بأكمله بطريقة غريبة، وانغمر عميقًا في الأرض. حاول (توموتادا) سندها لكن لم يكن هناك ما يسنده! لم يجد على الأرض سوى ثوب زوجته الجميلة والطوق الذي كان في شعرها، أما جسدها فاختفى من الوجود.

حلق (توموتادا) رأسه واعتمد النذور البوذية، وأصبح كاهنًا رحالًا جال جميع مقاطعات الإمبراطورية. وفي كل مكان مقدس زاره صلى لروح (أوياغي). حتى وصل ذات يوم إلى (إتشيزن)؛ فبحث عن منزل والدي حبيبته.

لكنه عندما وصل إلى المكان المنعزل بين التلال حيث مسكنهم لم يجد المنزل، ولا حتى ما يدل أن منزلًا قد قام هنا في وقت من الأوقات. لم يجد إلا بقايا ثلاث أشجار صنوبر قطعت قبل وصوله بوقت طويل، شجرتان عجوزان

وثالثتهما يافعة.

جوار تلك الأشجار أقام شاهدًا تذكاريًا حفر عليه عددًا من النصوص المقدسة، وصلى كثيرًا لروح (أوياغي) ووالديها.

جيوروكوساكورا

Uso no yona, Jiu-roku-zakura, Saki ni keri.

كزائف الجمال سقطت چيوروكوساكورا يوم السادس عشر.

في (واكيغوري) بمقاطعة (إيو) شجرة كرز قديمة جدًا اشتهرت باسم (چيوروكوساكورا)؛ شجرة كزر اليوم السادس عشر. لم تكن تلك الشجرة تزهر إلا يومًا واحدًا من كل عام: السادس عشر من يناير وفقًا للتقويم القمري القديم.

وكانت تلك معجزتها؛ فشجر الكرز بطبيعته يزهر في الربيع، عكس (چيوروكوساكورا) التي تتفتح أزهارها في البرد القارس. إن (جيوروكوساكورا) تستمد حياتها من روح أخرى ليست بروحها، أو على الأقل لم تكن كذلك.

فهي مسكونة بشبح رجل.

كانت (چيوروكوساكورا) تزهر كغيرها من الأشجار في نهاية مارس أو بداية إبريل. وكان هناك فارس ساموراي من (إيو) ورث عن والديه وأجداده عادة تزيين فروع تلك الشجرة بالشرائط الملونة وقصائد الثناء في موسم الربيع، وهي عادة لم تنقطع من عائلته موسمًا بعد آخر منذ مائة عام.

لعب تحت الشجرة طفلًا، وظلت أثيرة عنده حتى طعن في السن وجاوز عمره عمر أبناءه جميعًا، ولم يبق له في الدنيا سواها. حتى جاء صيف ذبلت فيه الشجرة وماتت! وحزن العجوز على شجرته أشد الحزن؛ فزرع له جيرانه الطيبون شجيرة كرز جميلة في حديقته أملًا في مواساته. تظاهر بالفرح وشكرهم لكن الألم كان يعتصر قلبه، فقد كان حبه لشجرته القديمة أكبر من أي تعزية عن فقدانها.

وفي السادس عشر من يناير إحدى السنوات وائته فكرة لإنقاذ شجرته المحتضرة؛ فذهب إلى حديقته وانحنى أمام الشجرة وحدثها قائلًا: "سأفديك الآن بحياتي، أرجوك أزهري ثانيةً."

يُعتقد في الموروث الياباني أن الآلهة تسمح للمرء أحيانًا أن يمنح حياته لمخلوق آخر إنسانًا كان أو حيوانًا، أو حتى شجرة. وتدعى هذه العملية "ميغاواري ني تاتسو"؛ أي الاستبدال.

وضع أغطية بيضاء تحت الشجرة ثم ركع فوقها، وغرس سيفه في قلبه. قتل نفسه على طريقة (هاراكيري)؛ طريقة الساموراي. فسكنت روحه الشجرة، وأزهرت في الساعة ذاتها. وما زالت الشجرة تزهر بين ثلوج كل عام؛ في السادس عشر من يناير.

حلم أكينوسوكي

في منطقة (تويتشي) بمقاطعة (ياماتو) عاش رجل يدعى (مياتا أكينوسوكي). كان (مياتا) أحد أفراد طبقة استثنائية عرفتها اليابان القديمة باسم طبقة (غوشي)؛ وهي فئة ممن تملكوا الأراضي الزراعية وسكنوها بعدما تركوا الخدمة العسكرية. وتقابل طبقة (اليومن) (44) في إنجلترا.

وكان في حديقة (أكينوسوكي) شجرة سرو عتيقة عملاقة يستريح تحتها في نهارات الصيف. وذات ظهيرة شديدة الحرارة جلس (ميتا) تحت شجرة السرو مع اثنين من أصدقاءه من (الغوشي)؛ يتحدثون ويحتسون النبيذ. وفجأة أحس بنعاس شديد يغالبه؛ فاستأذن أصدقاءه أن يغفو بجانبهم، واضطجع على جذع الشجرة ونام.

رأى في المنام أنه بينما كان مستلقيًا في حديقته لاحظ موكبًا يهبط من تلة قريبة. بدا له كمواكب الدايميو عظيمي الشأن فذهب ليلقي نظرة عن قرب، وكان الموكب من أروع ما رأى في حياته. على رأسه كان شباب في ثياب فاخرة، يركبون عربة كبيرة مطلية بلون أسود لامع، ومزينة بحرير أزرق زاهٍ. اتجه الموكب نحو بيت (أكينوسوكي) وتوقف أمام بابه، ثم نزل منه رجل غاية في الأناقة يبدو أيضًا أنه ذو رتبة عالية. تقدم الرجل نحو (أكينوسوكي) وانحنى له تقديرًا ثم قال: "سيدي المحترم،

يمثل أمامكم الآن خادم لحاكم البلاد. لقد أمرني سيدي الملك أن أحييكم باسم جلالته وأضع نفسي تحت تصرفكم بالكامل. كما أمرني بإبلاغك رغبته في حضور سيادتكم إلى القصر، لذا أرجو منك ركوب العربة التي أرسلها لاصطحابك".

أراد (أكينوسوكي) أن يرد ردًا ملائمًا لكن دهشته وحرجه ألجما لسانه، وأحس أن إرادته خنعت؛ فلم يستطع سوى أن ينفذ طلب الرسول. دخل العربة وتلاه الخادم الذي أعطى إشارة لسائقي العربة؛ فأرخوا الحبال الحريرية موجهين العربة جنوبًا، وبدأت الرحلة.

لدهشة (أكينوسوكي) لم تطل الرحلة كثيرًا؛ فبعد مدة قصيرة توقفت العربة أمام بوابة ضخمة لقصر من طابقين مبني على طراز (رومون) الصيني، ولم يكن قد رأى مثله قبلًا.

نزل الخادم من العربة وقال: "سأذهب لإعلان خبر وصولكم الكريم."، ثم غاب عن الأنظار.

وبعد وهلة رأى (أكينوسوكي) رجلين نبيلي المظهر في ثياب من الحرير القرمزي يخرجان من بوابة القصر. بعد التحية ساعداه في الهبوط من العربة، وقاداه عبر البوابة الكبيرة وحديقة القصر الشاسعة إلى المدخل الذي بدت واجهته كأنها تمتد مسافة أميال غربًا وشرقًا. أدخله مرشداه بعد ذلك إلى بهو استقبال مبهر وأجلساه في مجلس

ضيوف الشرف، وجلسا باحترام على مسافة منه. وسرعان ما أحضرت له الخادمات ذوات الزي الرسمي بعض المرطبات.

بعدما انتهى (أكينوسوكي) من مشروبه تقدم الخادمان نحوه وانحنيا باحترام، ثم قالا له بالتناوب -وفقًا للقواعد الملكية-: "يحتم علينا واجبنا المشرف أن نخبرك بسبب استدعائك إلى هنا. إن جلالة الملك يرغب في مصاهرتك، وأمر بناء على رغبته هذه أن تتزوج اليوم من ابنته العزيزة؛ سمو الأميرة. سنصحبك بعد لحظات إلى قاعة الحضور حيث ينتظرك صاحب العزة، لكن يتحتم أولًا أن ترتدي الثياب الرسمية".

انتهى الخادمان مما قالا فتوجه معهما إلى غرفة تحوي صندوقًا كبيرًا مطليًا بالذهب. فتحا الصندوق وأخذا منه ثيابًا فاخرة وتاج (كاموري) المخصص للعريس رفيع الشأن. ثم قاداه إلى البلاط حيث رأى الملك في ثيابه الحريرية الصفراء متوجًا بتاج المملكة الأسود، متربعًا على الدايزا؛ كرسي العرش.

عن يمين العرش ويساره اتخذ جمع غفير من الشخصيات الهامة مقاعدهم على الترتيب، يجلسون ثابتين بلا حراك كتماثيل المعابد. تقدم (أكينوسوكي) حتى توسط الجمع، ثم قدم للملك تحيته بالسجود له ثلاثًا. رحب به الملك بكلمات طيبة ثم قال: "أعتقد أنك أُبلغتَ سبب حضورك. لقد قررنا تزويجك ابنتنا الوحيدة، والآن ستقام مراسم

الزفاف." بمجرد أن انتهى الملك من كلماته عُزفت الموسيقا السعيدة، وظهر من خلف الستار طابور من السيدات الجميلات ليقدن (أكينوسوكي) إلى غرفة العروس التي تنتظره.

كانت الغرفة على اتساعها الكبير تكفي بالكاد الجمع الغفير الذي أتى لحضور الزفاف. اتخذ (أكينوسوكي) مكانه على الوسادة المعدة له في مقابلة الأميرة، وانحنى الجميع أمامه في احترام. وعندما نظر للعروس في ثيابها التي تضاهي سماء الصيف جمالًا، بدت له كحورية من الجنة. وعُقد الزواج في حفل كبير.

بعدما انتهى الاحتفال أُرشد الزوجان إلى جناح جهز لهما في جانب آخر من القصر، وهناك تلقيا رسائل تهاني النبلاء وهدايا الزفاف التي لا يحصيها العد.

وبعد عدة أيام استدعي (أكينوسوكي) مرة أخرى إلى قاعة العرش. استقبله الملك بلطف زائد عن المرة السابقة وقال له: "في جنوب مملكتنا جزيرة تدعى (رايشو)، وأنت من الآن فصاعدًا حاكم تلك الجزيرة بأمر مني. إن شعبها وفيّ مطيع، لكن قوانينهم وعاداتهم بحاجة لإعادة هيكلة لتوافق قوانين المملكة وعاداتها. إني أكلفك بتحسين حياتهم قدر المستطاع، وبأن تحكم تلك الجزيرة بالحكمة والعطف. وقد أجريت كل التجهيزات اللازمة لرحلتك إلى (رايشو)".

غادر (أكينوسوكي) وزوجته القصر ورافقهما وفد من النبلاء والمسؤولين إلى الشاطئ حيث السفينة الملكية. وبمعونة الرياح وصلت السفينة بسلام إلى (رايشو) حيث كان سكان الجزيرة الصالحين في استقبالهما مرحبين. وسرعان ما شرع (أكينوسوكي) ينفذ مهام عمله الجديد.

في السنوات الثلاث الأولى كان شغله الشاغل وضع القوانين وتنفيذها بمساعدة مستشاريه الحكماء الذين سهلوا عليه مهمته فلم يجزع منها قط. وبعدما انتهى من هذا الشأن لم يبق لديه واجبات سوى حضور الطقوس الرسمية والمراسم التقليدية. لم تعرف الجزيرة في حكمه المرض أو الحاجة، بل كانت بلدًا ينعم بالصحة وخصوبة الأرض، وكان شعبها صالحًا لا ينتهك القوانين. ولعشرين عامًا بعد الثلاث الأول، عاش (أكينوسوكي) في الجزيرة وحكمها دون أن يعرف الحزن طريقًا لحياته. لكن العام الرابع والعشرين أتى محملًا بفاجعة عظيمة؛ إذ مرضت زوجته وأم أبنائه السبعة -خمس من البنين واثنتين من البنات-، ووافتها المنية.

على قمة تلة جميلة في منطقة (هانريوكو) تمت مراسم دفنها، ووضع على قبرها نصب تذكاري رائع الجمال. لكن حزن (أكينوسوكي) لفراقها أفقده الرغبة في الحياة.

بعدما انتهت فترة الحداد الرسمية أتى إلى (رايشو) رسول ملكي من القصر محمل برسالة تعزية وكلمة ل(أكينوسوكي).

"أمرني سيدي جلالة الملك أن أخبرك عن لسانه ما يلي: "سنعيدك الآن إلى شعبك وبلادك. أما أبناؤك السبعة فهم أحفاد الملك وحفيداته، وستتم رعايتهم بالشكل المناسب، فلا تقلق بشأنهم".

وخضع (أكينوسوكي) للأمر فأعد نفسه للرحيل. وبعدما سوى جميع شؤونه وحضر مراسم وداعه لمستشاريه وثقاته من المسؤولين، رافقوه جميعًا إلى الميناء في موكب شرفي، ولم يتركوه حتى اتخذت السفينة مجراها. وتحت السماء الزرقاء تحولت جزيرة (رايشو) إلى بقعة من اللون الأزرق ثم الرمادي، قبل أن تغيب عن ناظريه إلى الأبد.

وفجأة، استيقظ (أكينوسوكي) تحت شجرة السرو في حديقته! ظل مرتبكًا للحظة، ثم لاحظ صديقيه الجالسين بجواره يتحدثان بسعادة ويشربان النبيذ.

نظر إليهما في حيرة وصاح: "يا للعجب!".

قال أحدهما ضاحكًا: "يبدو أنك كنت تحلم يا (أكينوسوكي)! قص علينا حلمك".

حكى لهما قصة الأعوام الثلاث والعشرين التي قضاها على جزيرة (رايشو) في خدمة التاج، وتعجب صديقاه؛ فهو لم ينم سوى بضع دقائق.

قال أحدهما: "يا له من حلم غريب بحق! أتعرف ما الغريب أيضًا؟ أثناء نومك حامت فراشة صفراء صغيرة

للحظات فوق رأسك، ثم هبطت على الأرض بجانبك قرب الشجرة. وبمجرد هبوطها خرجت نملة كبيرة جدًا من حفرة، وأمسكت بالفراشة وسحبتها داخل الحفرة. وقبل أن تستيقظ مباشرة خرجت الفراشة من الحفرة وحامت فوق وجهك ثانيةً ثم اختفت، ولا نعرف إلى أين ذهبت".

وقال الآخر: "ربما كانت روح (أكينوسوكي)، إني أكاد أجزم أني رأيت الفراشة تدخل جوفه. لكن حتى لو كان الأمر كذلك، فلا يفسر هذا حلمه!".

فعاد الأول يقول: "لكن النملة قد تفسره؛ فالنمل كائن عجيب. وربما كانت جنية! على أية حال فمسكن تلك النملة تحت جذع شجرة السرو".

صاح (أكينوسوكي) وقد أثاره الاقتراح: "دعونا نرى!" وذهب مسرعًا لإحضار مجرفة.

تبين أن مستعمرة من النمل اتخذت من الأرض حول شجرة السرو مملكة حفروها بطريقة مدهشة، وبنوا فيها هياكل صغيرة من القش والطين والأعواد كأنها مدينة صغيرة. وفي منتصف تلك المدينة هيكل أكبر من سواه تجمع فيه النمل حول نملة كبيرة جدًا لها رأس أسود طويل وأجنحة صفراء.

صرخ (أكينوسوكي): "لعمري هذا هو الملك كما رأيته في حلمي! وهذا قصره! يا للعجب! لا بد إذًا أن (رايشو) في مكان ما جنوب غرب القصر، يسار هذا الجذر

الكبير..نعم! ها هو! أمر لا يصدق! أنا متأكد أننا سنجد هنا تلة (هانريوكو) وقبر الأميرة.

في حطام بيت النمل بحث وبحث حتى وجد ما يشبه تلة صغيرة يعلوها حجر صغير أملس على شكل تمثال بوذي. وتحت الحجر وجدها مغطاة بالطين؛ نملة ميتة.

ريكي باكا

(ريكي) كان اسمه المعبر عن القوة في معناه، لكن الناس أطلقوا عليه اسم (ريكي باكا)؛ أي (ريكي) بسيط العقل، أو (ريكي) الأحمق. فقد ولد (ريكي) بحالة طفولة ذهنية دائمة؛ ولهذا السبب كان الجميع يرفقون به حتى عندما وقف يصفق فرحًا بعدما أضرم النار في أحد المنازل بإشعاله عود ثقاب عند الناموسية.

بلغ (ريكي) السادسة عشرة من العمر واشتد فتى قويًا طويل القامة، لكن عمره العقلي لم يزد عن السنتين. فاستمر في اللعب مع الأطفال الصغار، أما أولاد الحي ممن بلغوا الرابعة حتى السابعة فلم يشركوه في لعبهم؛ إذ تعذر عليه تعلم أغانيهم وألعابهم. كانت لعبته المفضلة عصا مكنسة يتخيل أنها حصان، ولساعات طويلة كان يركب العصا صعودًا وهبوطًا على المنحدر أمام بيتي وهو يضحك بسعادة وعفوية. لكن ضحكاته وضجيجه أصبحا مع الوقت مصدر إزعاج، واضطررت إلى إخباره أن يجد ملعبًا آخر؛ فانحنى صاغرًا وهو يجر العصا وراءه بحزن.

كان (ريكي) لطيفًا على الدوام. وباستثناء لعبه بالنار أحيانًا لم يؤذ أحدًا قط، ونادرًا ما اشتكى منه أي مخلوق. لكن علاقته بحياتنا في الحي لم تكن تتجاوز علاقتنا بدجاجة أو كلب؛ لذا لم ألاحظ غيابه الذي استمر لأشهر طويلة. لم يخطر ببالي حتى رأيت الحطاب العجوز الذي

يزود حينا بالحطب ذات يوم، فقد كان (ريكي) يساعده دومًا في حمل الحزم.

سألت العجوز: "أين (ريكي)؟" فأجابني: "(ريكي باكا)؟ آه، لقد مات (ريكي). يا للفتى المسكين! مات فجأة قبل حوالي عام. قال الأطباء أنه عانى من مرض في المخ، أتعلم أن هناك قصة غريبة بشأن ذلك المسكين؟".

"عندما مات (ريكي) كتبت والدته اسمه على كف يده اليسرى: (ريكي) بالرموز الصينية، و(باكا) بالكانا (45) اليابانية. وصلت لأجله كثيرًا؛ صلت أن يولد من جديد في حال أفضل، ويعيش حياة أسعد. وقبل ثلاثة أشهر عندما كان أحد سادة القوم مقيمًا في (كوغيماشي)، ولد له صبي بحروف على كفه الأيسر، حروف واضحة جدًا للعيان: (ريكي باكا)!".

"فهم أهل المولود أن العلامة استجابة لصلوات أحدهم. فبحثوا في كل مكان حتى أتاهم تاجر خضراوات بالخبر اليقين: أن شابًا بسيط العقل من (أوشيغومي) يدعى (ريكي باكا) قد توفي الخريف الماضي. فأرسلوا خادمين بحثًا عن والدة (ريكي)".

"وجد الخادمان والدة (ريكي). وعندما أخبراها بما حدث فرحت أيما فرح، فبيت هذا السيد مشهود له بالعراقة والثراء. لكن الخادمين أبلغاها أن عائلة المولود غاضبة جدًا من كلمة (باكا) على يد المولود. وسألاها

عن مكان مدفن (ريكي) فأخبرتهما أنه دفن في مقبرة معبد (زيندو چي)، وصحبتهما إلى قبره ليأخذا منه بعض التراب بناء على طلب والدة الطفل. فلف الخادمان التراب في محرمة قطنية وأعطيا والدة ريكي عشر ينات (46) ".

سألت الحطاب: "لكن ماذا فعلوا بالتراب؟".

أجابني: "من غير اللائق كما تعلم أن يكبر الطفل وهذا الاسم على يده. وليست هناك وسيلة أخرى لإزالة الحروف التي تظهر على جسد مولود بهذه الطريقة إلا فرك جلده بتراب قبره في حياته السابقة".

هيماواري

في الغابة خلف منزلنا كنت أبحث مع (روبرت) عن خواتم الجنيات.

كان (روبرت) فتى جميلًا بالغ الحكمة رغم سنواته الثمانية، وكنت أنا قد جاوزت السابعة بقليل. وكان اليوم أحد أيام أغسطس المشرقة الجميلة، والهواء الدافئ يملأ الجو برائحة الراتنج (47) .

لم نجد أي خواتم جنيات، لكننا وجدنا الكثير من مخروطات الصنوبر بين الأعشاب. قصصت على (روبرت) القصة الويلزية القديمة عن الرجل الذي نام -دون أن يدرك- داخل خاتم جنية، واختفى سبع سنوات حتى فك أصدقاؤه التعويذة وأنقذوه؛ لكنه عاش بعد ذلك صائمًا عن الطعام والكلام.

قال لي (روبرت): "أتعرف أنهم لا يأكلون إلا أطراف الإبر؟".

سألته: "من هم؟".

أجابني روبرت: "العفاريت".

فاجئني جوابه وأخافني، ثم سمعت (روبرت) يصرخ قائلًا: "هناك عازف قيثارة يتجه ناحية المنزل!".

هبطنا عن التل بسرعة لنستمع إلى ألحان عازف القيثارة، ويا له من عازف! ليس كأولئك المسنين الذين رأيتهم في

ألبومات الصور؛ بل هو رجل غجري قوي البنية غير مهندم المظهر، يخفي عينان سوداوان جريئتين تحت حاجبيه المتجهمين. كان أقرب للبنائين منه للعازفين، ويرتدي ثوبًا من الكوردوري (48) .

همهم (روبرت): "ترى هل سيغني باللهجة الويلزية؟" لكني مظهر العازف أشعرني بالإحباط فعزفت عن الرد.

أسند العازف قيثارته على عتبة دارنا وبدأ يعزف على أوتارها بأصابعه الملطخة بالأوساخ. وبعدما تنحنح بصوت فظ شرع يغني: "صدقيني، حتى لو ذهب كل سحرك الرقيق الذي أنظر إليه اليوم في شغف...".

لكنته وأسلوبه وصوته تسببوا لي في انزعاج يفوق الوصف. كان إحساس بالفجاجة ينفرني، رغبت أن أصرخ بصوتٍ عالٍ قائلًا: "ليس من حقك أن تغني هذه الأغنية!" فقد سمعت هذه الأغنية من أرق وأعز شفاه في عالمي الصغير، ثم يجرؤ هذا الرجل الوقح على غنائها بطريقته المثيرة للسخرية، ووقاحته التي تملئني بالغضب.

لكن سرعان ما زال شعوري هذا، فما أن نطق مقطع "اليوم..." حتى تحول صوته العميق الجامح إلى سلاسل من حنان. يرتعش صوته بطريقة لا توصف كأنه تردد أنغام البيانو الثرية، وغمرني شعور لم أشعر به قبلًا. أي تعويذة تعلمها هذا الرجل؟ ما السر الذي كشفه هذا الجوال؟ يا إلهي، هل هناك سواه في العالم يستطيع الغناء بهذه

الطريقة؟

تلاشت هيئة العازف من أمام عينيّ حتى اختفت ومعها المنزل والحديقة، وأصبحت كل أشكال الوجود المادي صورة مشوشة تسبح أمامي. لكن شيئًا بداخلي يجعلني أخشى هذا الرجل حتى أكاد أكرهه، يبعث فيّ وجوده غضبًا ونجلًا، ربما لقدرته على التأثير في بهذا الشكل.

ولاحظ (روبرت) عيناي الدامعتين فقال بعطف: "جعلك تبكي!".

وازدادت حيرتي.

بينما نراقب العازف يبتعد عنا ومعه ست بنسات أخذها دون أن يشكرنا، قال (روبرت): "لا بد وأنه غجريّ، إن الغجر قوم سيئون ويتقنون فنون السحر. فلنعد إلى الغابة".

عدنا إلى تسلق أشجار الصنوبر، ثم افترشنا العشب الذي ألقت عليه أشعة الشمس بريقها. وتملك منا سحر العازف كليًا فلم نستطع العودة إلى اللعب، فجلسنا نراقب المدينة والبحر.

تساءل (روبرت): "ربما كان عفريتًا؟".

استجمعت شجاعتي أخيرًا وقلت: "أو جنيًا؟".

رد (روبرت): "لا، إنه مجرد غجري. وهذا سيء بما يكفي، فهم يخطفون الأطفال كما تعلم".

سألته وقد صدمتني حقيقة وحدتنا المرعبة: "لكن، ماذا سنفعل إذا جاء إلى هنا؟".

فأجابني: "لن يجرؤ على ذلك، ليس في وضح النهار".

بالأمس قرب قرية (تاكاتا) لفتت نظري زهرة يابانية اسمها (هيماواري)، معنى اسمها مقارب للاسم الذي نطلقه عليها: "المتجهة صوب الشمس". عندما رأيتها عاد إلى أذني صوت غاب عنها مدة أربعين عام؛ صوت عازف القيثارة المتجول يثلني: "عيناها تتبعان حبيبها حيثما التفت كزهرة عباد الشمس تتبع إلهها".

عادت لي ذكرى أشعة الشمس المتلألئة على تلة البيت الويلزي البعيد، و(روبرت) يقف إلى جواري بشعره الذهبي ووجهه الجميل بينما نبحث عن خواتم الجنيات. لكن الزمن ترك مسحته على (روبرت)، فتحول إلى شيء ثري غريب.

"لَيْسَ لأَحَدٍ حُبٌّ أَعْظَمُ مِنْ هذَا: أَنْ يَضَعَ أَحَدٌ نَفْسَهُ لأَجْلِ أَحِبَّائِهِ". (49)

هوراي

السماء تتمازج مع غطاء البحر اللامع فيندمج الأفقان في لوحة زرقاء خلابة.

يخلق السماء والبحر معًا وحدة شاسعة من الأزرق، وتلتقي الأمواج بخيط فضيّ من نور فيتلاطم الزَبَد. لا حراك على البُعد، لا شيء على مد البصر سوى زرقة المياه الدافئة تذوب في زرقة السماء. وليس من أفق تراه، بل مسافات تتحد بالفضاء مشكلة فراغًا لا متناهيًا أمامك، ولونًا أزرقًا يزداد عمقًا من فوقك. بعيدًا في منتصف المساحة الزرقاء تظهر من المدى أبراج قصر عالية أسطحه المنحوتة كأنها الأقمار، وظلال القصر الخافتة تضفي على المشهد رونقًا كلاسيكيًا عجيبًا تُظهره خيوط الشمس الناعمة كأنها الذكرى.

ما كنت أحاول وصفه هو (كاكيمونو)؛ نوع من اللوحات اليابانية يرسم على الحرير. واسم اللوحة المعلقة على جدار محرابي هو (شينكيرو). وهي كلمة يابانية تعني السراب، لكنه سراب لا تخطئه العين. فهذه هي الأبواب المتلألئة ل(هوراي) المقدسة. وتلك الأسطح قمرية الشكل؛ أسطح قصر الملك التنين. لقد رسمها الرسام الياباني الحديث بالشكل ذاته الذي رسمها به الصينيون قبل ألفين ومائة عام.

تقول الكتب الصينية القديمة: في (هوراي) لا موت،

ولا ألم، ولا شتاء. (هوراي) زهور لا تذبل أبدًا، وفاكهة لا تنضب، إذا تذوقها المرء مرة، لا يعرف للجوع أو العطش طعمًا بعدها.

في (هوراي) نباتات ثلاث يشفين كل مرض: (سورينشي)، و(ريكوجوأوي)، و(بانكونتو). وفيها أيضًا عشب (يوشينشي) السحري الذي يحيي الموتى. ويُروى هذا العشب بماء الجنيات الذي يكفل الشباب الدائم لمن يتجرع منه جرعة واحدة.

يتناول أهل (هوراي) الأرز في أوعية صغيرة جدًا، ورغم ذلك لا ينتهي الأرز منها أبدًا مهما أكلوا. ويشربون النبيذ من كؤوس صغيرة جدًا لكنها لا تفرغ أبدًا حتى يغشى شارب الكأس نعاس الخمر اللطيف.

كل هذا وأكثر تخبرنا عنه أساطير سلالة (شين) الحاكمة. لكن أولئك الذين دونوا هذه الأساطير لم يروا (هوراي) أبدًا ولا حتى في الخيال، كل ما كتبوه مجرد وهم.

فلا فاكهة تشبع آكلها إلى الأبد، ولا عشبًا سحريًا يبعث الموتى، ولا نافورة مياه جنيات، ولا أوعية أرز لا تنضب، ولا كؤوس نبيذ لا تفرغ. أكذوبة هي أن الموت والحزن لا يدخلان (هوراي)، كأكذوبة أن (هوراي) أرض لا تعرف الشتاء. فشتاء (هوراي) بارد تنخر رياحه العظام، وثلوجه تتكوم كوحش أسطوري راقد فوق سطح قصر

الملك التنين.

ورغم ذلك لا تخلو (هوراي) من روائع. لكن أكثرها جمالًا هو ما أغفل الكتاب الصينيون ذكره؛ هواء (هوراي) الذي لا مثيل له في الصفاء حتى أن أشعة الشمس تخترقه في نعومة، نكيوط من الضياء الأبيض كالحليب. إن هواء (هوراي) ليس كالذي يعرفه البشر، ذلك المكون من نيتروجين وأكسجين. بل هواء قديم قدم الأزل، شكلته أجيال وأجيال من الأرواح المتمازجة في كيان شفاف واحد، أرواح أناس عاشوا حيوات ليست كتلك التي نعيشها.

عندما يتنفس البشريّ هواء (هوراي) تمتزج تلك الأرواح الملهمة بدمه في هدوء، فتتبدل حواسه ويتغير إحساسه بالزمان والمكان ويرى العالم ويشعر به ويفكر فيه مثلهم.

هكذا وصف السابقون (هوراي):

"إن (هوراي) مكان لا يعرف الشر. لذا فقلوب ساكنيه لا تشيخ أبدًا، بل تعيش شبابًا دائمًا. ولا تفارق البسمة وجوههم من الميلاد حتى الموت إلا عندما تبعث لهم الآلهة بعضًا من حزن، فيغطون وجوههم حتى يرحل. في (هوراي)، الثقة والحب هما أساس الحياة، كأن الجميع عائلة واحدة. أما نساء (هوراي) فقلوبهن في خفة العصافير، وأصواتهن كزقزقتها. وأكمام الفتيات الواسعة

تسري كأجنحة ناعمة عندما يعزفن الموسيقا".

لا يخفي أهل (هوراي) شيئًا سوى الحزن، أما الأمتعة فلا داعي لإخفائها في أرض لا تعرف السرقة، ولا حاجة لإغلاق الأبواب ليلًا أو نهارًا في أرض لا يعرفها الخوف.

باستثناء قصر الملك التنين فكل شيء في (هوراي) متناهي الصغر بشكل عجيب. فهيئة أهلها -وإن لم يكونوا مخلدين- هي هيئة الملائكة والجنيات، ولهذا يأكلون الأرز من أوعية صغيرة جدًا، ويشربون النبيذ من كؤوس صغيرة جدًا.

ويُرجع الكُتاب هذا التصور عن (هوراي) إلى هواءها السحري، لكن سحر أرواح الأقدمين لم يكن في الهواء وحده، بل في سحر المثل العليا وبريق الأمل الأزلي. الأمل الذي تحقق في قلوب ملؤها الرضا، وحياة من الإيثار، ونساء يشرقن باللطف.

تهب رياح الشر من الغرب لتعصف ب(هوراي)؛ ويا للأسف! يخسر الهواء السحري في مواجهتها.

لم يبق من (هوراي) سوى سحب من الهواء السحري شكلها الرسامون اليابانيون من خيوط الحرير اللامعة. فقط من بين تلك السحب، يمكنك أن ترى (هوراي). لكن تذكر أن ل(هوراي) اسم آخر: (شينكيرو)؛ أي السراب، رؤيا الخيال. وتغيب الرؤيا، ويختفي وجودها، إلا في

اللوحات، والقصائد، والأحلام...

دراسات الحشرات

الفراشات

(1)

لكم تمنيت حظ الأديب الصيني الذي يعرفه الأدب الياباني باسم (روسان)!

فقد كان ينعم بحب عذراوين سحريتين، شقيقتان سماويتان تأتيان لزيارته كل عشرة أيام ليرويا له قصص الفراشات.

إن الأدب الصيني يزخر بقصص غموض رائعة عن الفراشات وددت لو أعرفها. لكني أعجز عن قراءة الصينية بل واليابانية حتى، وقليل الشعر الياباني الذي ترجمته بصعوبة بالغة دائم الإشارة إلى قصص الفراشات الصينية، لذا أنا فمعذب عذاب (تنتالوس) (50) ، فلن ترغب أي روح عذراء في زيارة مشكك مثلي بالطبع.

أود أن أعرف مثلًا قصة العذراء الصينية التي اعتبرتها الفراشات زهرة وتبعنها بأعداد كبيرة بسبب عطرها الزكي وجمالها الفائق. وأريد أن أعرف المزيد عن الامبراطور (غينسو) أو (مينغ هوانغ) الذي كان يجعل الفراشات تختار له حبيباته. فكان يقيم حفلات النبيذ في حديقته الغناء ويطلق فراشاته من محبسها ناحية الحسناوات اللواتي تخدمنه، فتحلق الفراشات نحو أكثرهن حسنًا لتصبح مختارة الامبراطور. على أن الامبراطور استغنى عن فراشاته

عندما رأى (يوكيهي) التي يدعوها الصينيون (يانغ كوي في). وكان ذلك من سوء حظه، إذ تسببت له (يوكيهي) في متاعب جمة.

وأود أيضًا لو أعرف أكثر عن تجربة الأديب الصيني المعروف في اليابان باسم (سوشو). لقد حلم (سوشو) أنه فراشة؛ عاش كل مشاعرها وطارت روحه كالفراشات حقًا، وعندما استيقظ بقيت ذكرى حلمه حية في وجدانه بشكل أنساه طبيعته البشرية، فلم يتمكن بعد ذلك من استئناف حياته كإنسان. وأخيرًا أريد قراءة نص المنشور الصيني الرسمي الذي اعترف بمجموعة من الفراشات على أنها أرواح أحد الأباطرة وحاشيته.

باستثناء قليل من النصوص الشعرية فأدب الفراشات الياباني مستقى في العموم من أصل صيني. وحتى الشعور الجمالي بالفراشات وتجسيدها في الفن والأغاني والملابس اليابانية طور في البدء تحت استرشاد صيني. وهذا الفرض يفسر اختيار كثير من الشعراء والرسامين اليابانيين لألقاب تتعلق بالفراشات؛ مثل (تشومو)؛ ويعني حلم الفراشة، و(إيتشو)؛ أي الفراشة المنعزلة، إلى غيرهما من الفنانين. وحتى يومنا هذا نجد كثيرًا من الراقصات متأثرات بتلك الظاهرة، مثل (تشوهانا)؛ زهرة الفراشة (51)، و(تشوكيتشي)؛ حظ الفراشة، وأيضًا (تشونوسوكيه)؛ مساعدة الفراشة.

وبعيدًا عن الأسماء الفنية تنتشر تسميات الفراشات بين

العامة أيضًا، فنرى أسماء مثل (كوتشو) أو (تشو) بمعنى الفراشة. والقاعدة أن أسماء كتلك تختص بها النساء، لكن لا يخلو الأمر من بعض الاستثناءات بالطبع. وأذكر هنا أيضًا أن أهل مقاطعة (موتسو) يطلقون على صغرى بنات العائلة لقب (تيكونا) والذي يعني الفراشة بلهجة (موتسو)، وكان يعني السيدة الجميلة في عصور سابقة، وهي عادة قديمة لا زالت سارية حتى اليوم.

يحتمل أيضًا أن بعض المعتقدات اليابانية حول الفراشات لها أصل صيني، غير أن تلك المعتقدات قد تسبق في وجودها وجود الصين ذاتها. أكثر تلك المعتقدات إثارة للاهتمام في رأيي هو أن روح الإنسان يمكنها أن تجوب الدنيا على هيئة فراشة وهو على قيد الحياة. وقد بني على هذا الاعتقاد أساطير جميلة، كأسطورة أن دخول فراشة لغرفة الضيوف واحتمائها بالباب يعني أن أحب الناس لقلب صاحب البيت سيأتي لزيارته.

ورغم أن فكرة تجول الأرواح في صورة فراشات أمر لا يدعو للخوف منها؛ إلا أن الفراشات قد تكون مخيفة في بعض الأحيان عندما تظهر بأعداد كبيرة. وقد سجل التاريخ الياباني وقائع كهذه، نذكر منها على سبيل المثال أسراب الفراش التي ظهرت في (كيوتو) عندما كان (تايرا نو ماساكادو) يستعد سرًا لثورته الشهيرة، فهلع الناس لظهور تلك الأسراب وظنوا أنها نذير شر سيحل. قالوا إن هذه الفراشات قد تكون أرواح آلاف سيلقون حتفهم

في المعركة. وسرى الخوف والارتباك بين الصفوف عشية المعركة، ربما بسبب شعور الموت الذي أطبق على المكان.

وإلى جانب احتمالية أن تكون الفراشة روحًا حية، يحتمل أيضًا حسب المعتقد الياباني أن تكون روحًا ميتة. فذكر في الأثر أن الروح عندما تعلن خروجها النهائي من الجسد ترحل في شكل فراشة، ولهذا يجب معاملة الفراشات التي تدخل المنزل بلطف.

وفي القصص الشعبية عديد من الإشارات لهذا الاعتقاد والأفكار المرتبطة به، نذكر منها على سبيل المثال مسرحية (توندي ديرو كوتشو نو كانزاشي)، أو (دبوس شعر (كوتشو) الطائر).

(كوتشو) هي فتاة جميلة عانت معاملة قاسية واتهامات باطلة ممن حولها حتى قررت التخلي عن حياتها. وبحثت روحها طويلًا عمن ظلمها لتنتقم منه لكنها لم تستطع تحديد هويته، حتى يتحول دبوس شعرها في نهاية القصة إلى فراشة تساعدها في انتقامها بأن تحوم حول مخبأ الشرير.

أما بخصوص زوج الفراش (أوتشو) و (ميتشو) الذي يظهر على شكل مجسمات ورقية كبيرة في حفلات الزفاف اليابانية؛ فليس له أي دلالات أسطورية. بل يعبر فقط عن فرحة اتحاد حياتين، والأمل في حياة مشتركة سعيدة كزوج من الفراش يطيران بخفة في حديقة جميلة، يطيران معًا وإن علا أحدهما عن الآخر أو ابتعد عنه حينًا،

لكنهما لا يفترقان.

(2)

ستساعدنا بعض المختارات من شعر الهايكو في إيضاح الاهتمام الياباني بالجانب الجمالي من هذا الموضوع. يصحب شعر الهايكو أحيانًا صورًا أو لوحات ملونة صغيرة، لكنه في الأغلب خيالات وأفكار جميلة تتجسد في سبعة عشر مقطعًا صوتيًا. وهو تنوع سيلمسه القارئ وإن لم يهتم بالأبيات في حد ذاتها. وهذه هي الحالة الغالبة؛ فذائقة الشعر الياباني القصير هي ذائقة تكتسب بتدريج وبطء، وبدراسة صبرة يتمكن بعدها المرء من تقدير هذا النوع من المؤلفات حق قدره.

وقد يقول القارئ المتسرع أن من السخف أخذ تلك القصائد ذات السبعة عشر مقطع على محمل الجد؛ لكن ماذا عن قصيدة (كراشو) الشهيرة عن معجزة عرس (قانا)؟ أربعة عشر مقطعًا صوتيًا كانوا كافيين لتخليد قصة بأكملها (52) .

لذا فسبعة عشر مقطع قادرون على إذهال المرء وإن قرأهم آلاف المرات. أما الأبيات الآتية من الهايكو فليس فيها ما يذهل بشكل خاص؛ وإنما اختيرت لأسباب أدبية:

Nugi-kakuru

Haori sugata no

Kochō kana!

كشكل الهاوري (53) تنزعه امرأة في خفة،

كذلك الفراشة!

Torisashi no

Sao no jama suru

Kochō kana!

أسفي على فراشة

تضحي بنفسها لأجل الطير (54)

فترمي نفسها على عصا صيده!

Tsurigané ni

Tomarité nemuru

Kochō kana!

تنام الفراشة

حيثما حطت فوق جرس المعبد!

Néru-uchi mo

Asobu-yumé wo ya—

Kusa no chō!

آه يا فراشة العشب!

حتى في نومك

تحلمين باللعب! (55)

Oki, oki yo!

Waga tomo ni sen,

Néru-kochō!

استيقظي أيتها الفراشة النائمة!

فأنا صديقك منذ الآن.

Kago no tori

Chō wo urayamu

Metsuki kana!

يا للحزن في عيني عصفور حبيس قفصه

يحسد الفراشات المحلقة.

Chō tondé—

Kazé naki hi to mo

Miëzari ki!

تمايل الفراشات

فتخلقن النسيم في الفضاء الساكن.

Rakkwa éda ni

Kaëru to miréba—

Kochō kana!

بدت لي

زهرة ساقطة تعود إلى غصنها (56)

ثم أدركت أنها فراشة!

Chiru-hana ni—

Karusa arasoü

Kochō kana!

كيف تسعى الفراشة

لمنافسة أوراق شجر الكرز المتطايرة في خفة!

Chōchō ya!

Onna no michi no

Ato ya saki!

انظر للفراشة

تعترض طريق السيدة

تحوم من بين يديها ومن خلفها!

Chōchō ya!

Hana-nusubito wo

Tsukété-yuku!

يا للفراشة

تطارد سارق الزهرة!

Aki no chō

Tomo nakéréba ya;

Hito ni tsuku

مسكينة أنت يا فراشة الخريف،

تلاحقين رجلًا

بعدما حرمتِ صحبة بنات جنسك!

Owarété mo,

Isoganu furi no

Chōcho kana!

آه يا فراشة!

لا تعرفين العجلة ولو كنت مطارَدة!

Chō wa mina

Jiu-shichi-hachi no

Sugata kana!

كل الفراشات تبدون

في عمر السابعة عشر أو الثمانية عشر. (57)

Chō tobu ya—

Kono yo no urami

Naki yō ni!

يا للفراشات تحلقن

كأن ليس في العالم حاسدين!

Chō tobu ya,

Kono yo ni Nozomi

Nai yō ni!

أجمل بالفراشة تحوم

كأنما لا تريد من الكون

سوى ما هي عليه الآن!

Nami no hana ni

Tomari kanétaru,

Kochō kana!

أسفًا لفراشة

تحاول عبثًا اللحاق

بزهرة يطيرها النسيم!

Mutsumashi ya!—

Umaré-kawareba

Nobé no chō.

لربما نبعث في حياة قادمة

في صورة فراشتين

تجولان السهول معًا

لربما تتحقق سعادتنا آن ذاك! (58)

Nadéshiko ni

Chōchō shiroshi—

Taré no kon?

حطت على الزهرة الوردية

فراشة بيضاء.

ترى روح من هذه؟

Ichi-nichi no

Tsuma to miëkéri—

Chō futatsu.

ظهرت أخيرًا

من كانت يومًا زوجة

في هيئة فراشة وزوجها!

Kité wa maü,

Futari shidzuka no

Kochō kana!

ترقصان لتتقاربا

وعندما تلتقيان أخيرًا

تسكن الفراشتان تمامًا!

Chō wo oü

Kokoro-mochitashi

Itsumadémo!

ليت لي قلب الفراشة

الذي لا تنضب منه الرغبة في المطاردة (59)

إلى جانب قصائد الفراشات هذه هناك مثال آخر حول نفس الموضوع في أدب النثر الياباني؛ وهو قصة ترجمتها بتصرف من كتاب (نصائح لحشرة) للكاتب (موشي إيسامي). والنص في ظاهره خطاب لفراشة، لكن مغزاه الأخلاقي عن الصعود والهبوط الاجتماعي.

"الريح الآن تحت شمس الربيع رقيقة، والزهور وردية، والعشب ناعم، والقلوب مبتهجة. تطير الفراشات بفرح في

كل مكان، فيكتب البعض عنها القصائد بالصينية، ويكتبها البعض الآخر باليابانية."

"إننا في فصل ازدهارك المشرق أيتها الفراشة، جمالك الآن لا يفوقه أي جمال في العالم. ولهذا تحسدك الحشرات الأخرى جميعًا دون استثناء. وليست الحشرات وحدها، بل يحسد الناس أيضًا جمالك الذي هو محط إعجابهم. انظري إلى الصيني (شوسو) يتجسد على هيئتك في حلمه، و(ساكوكو) الياباني يتخذ شكلك بعد موته. ويمتد حسد الآخرين لك إلى الجمادات عديمة الأرواح فتحاول اتخاذ صورتك، هو ذا نبات الشعير يتحول إلى فراشة".

"ولهذا يملؤك الكبرياء والزهو، تقولين: "ليس هناك تحت الشمس من هو أفضل مني".

"بإمكاني قراءة مكنون قلبك، أنت جد راضية عن كينونتك، ولذا تدعين جسدك للريح يراقصه في خفة فلا تثبتين على حال أبدًا. وتدور في رأسك الفكرة: ليس هناك من هو أكثر مني حظًا في هذه الدنيا".

"لكن حاولي أن تفكري في ماضيك قليلًا، ففيه جانب شائن جدير بالتأمل. لا تدرين أي جانب؟ حسنًا! لمدة طويلة بعد ميلادك لم يكن هناك ما يدعو للزهو في شكلك. كنت مجرد حشرة تأكل الكرنب، محض دودة مشعرة لا يغطي عريها أي شيء، مخلوق بشع المظهر يكره الجميع مرآه".

"كان نجلك من نفسك يدفعك لجمع الأغصان القديمة والمخلفات لتختبئي فيها، تصنعين عشًا تتعلقين على أحد فروعه وتتخفين، ويصرخ الجميع مناديين: يا (مينو موشي) (60) !".

"كانت خطاياك فظيعة في تلك المرحلة من حياتك، تجتمعين وزملائك بين أوراق الكرز الرقيقة الخضراء وتشوهونها، تخلفون القبح ورائكم بشكل يؤذي عيون من جاؤوا من البعيد لرؤية أشجار الكرز. وأشد من هذا بغضًا، كنت تقنعين رفاقك بالذهاب معك لجمع الدايكون من حقول الفلاحين، أولئك الفقراء من الرجال والنساء الذين كانوا يعملون في الحقول تحت الشمس الحارقة لأجل هذا الدايكون، خربتموه حتى ملئت الحسرة قلوبهم".

"الآن بعدما أصبحت جميلة تحتقرين رفاقك القدامى من الحشرات. كلما التقيت أحدهم تظاهرت بعدم معرفته، فأنت لا تريدين سوى مصادقة الأثرياء مرموقي المكانة، نسيت الأيام الخوالي أليس كذلك؟ صحيح أن كثيرين نسوا ماضيك، وسحرهم شكلك الرقيق وأجنحتك البيضاء فكتبوا عنك القصائد بالصينية واليابانية. وصحيح أن الفتاة النبيلة التي لم تكن تتحمل النظر إلى صورتك السابقة تنظر لك الآن في ابتهاج عندما تحطين على دبوس شعرها، وتمد يدها بمروحتها الرقيقة أمل أن تحطي عليها. لكن هذا يذكرني بقصة صينية قديمة عنك؛ قصة مخزية والحق يقال".

"قديمًا كان بلاط الامبراطور (غينسو) يعج بالسيدات

الجميلات، آلاف من الحسناوات تعجزن أي رجل عن الاختيار بينهن. كان الامبراطور يجمعهن ويترك لك حرية اختيار من ستنال شرف أن تكون الامبراطورة -حسب قانون تلك الحقبة الذي منع وجود أكثر من امبراطورة-. لكن عبثك وخفة عقلك غيرا هذا القانون، وجعلا الامبراطور يعيث فسادًا في الأرض. فبين جميع النساء نقيات القلب، كنت لا تبحثين سوى عن الجمال الخارجي. فحادت النساء عن طريقهن الأمثل، وصرن لا يفكرن إلا في مظاهرهن وكيف يتجملن في أعين الرجال، حتى لاقى الامبراطور حتفه المؤلم ومات ميتة بشعة بسبب تفاهة اختياراتك".

"وتتجسد حقيقتك في مواقف أخرى؛ كاختيارك للأشجار على سبيل المثال. فهناك أشجار دائمة الخضار لا تسقط أوراقها ولا تذبل، قوية الطابع ثابتة القلب كشجر البلوط والصنوبر. لكنك تكرهين تلك الأشجار، ترينها رسمية جامدة فلا تزورينها أبدًا. تزورين الأشجار زاهية الألوان فقط، وحدها من تحاولين إرضائها بالزيارة، كأشجار الكرز، والكايدو، والبيونية، والورود الصفراء".

"لكن دعيني أخبرك بخطأ مسلكك هذا. إن الأشجار التي تفضلينها زاهية وزهورها جميلة بالتأكيد، لكنها لا تثمر ولا تطعم الجوعى. إنها أشجار لا تفيد سوى محبي الاستعراض والتزين، لذا تسرها أجنحتك المنقوشة وشكلك الرقيق فتستقبلك بالترحاب".

"الآن ونحن في الربيع تتراقصين بسعادة في حدائق الأثرياء، وتحومين بين أشجار الكرز المزهرة، وتقولين: "ليس لأحد متعة كالتي أحظى بها، ولا أصدقاء كأصدقائي. ورغم كل ما يقال فأنا أحب الفاوانيا، والوردة الصفراء مفضلتي التي ألبي نداءها بكل سعادة وفخر".

"هكذا تقولين، لكن ربيع الزهور الغنية الأنيقة قصير جدًا. فسرعان ما تتساقط ويتلاشى وجودها، ولا يصمد أمام لهيب الصيف إلا الأوراق الخضراء. ثم تهب رياح الخريف لتتساقط الأوراق جميعًا تساقط المطر. ويكون مصيرك وحظك حينئذ حظ الرجل الذي ينطبق عليه المثل الشعبي: "حتى الشجرة التي احتميت بها تسربت إليها الأمطار".

حينها ستبحثين عن أصدقائك القدامى من الحشرات واليرقات، وستتوسلين إليهم أن يسمحوا لك بالعودة إلى حفرتك القديمة، لكن جناحاك سيحولان دون دخولك تلك الحفرة. لن تجدي لك مكانًا بين السماء والأرض، حتى العشب البري سيصيبه اليبس ولن تجدي قطرة ماء ترطب لسانك، لن تجدي مفرًا من الموت، لذا على الأرض ستستلقين وموتًا ستموتين-ويا للحسرة والأسف-، بسبب عقلك التافه وقلبك محب العبث".

(3)

معظم قصص الفراشات اليابانية تنحدر كما ذكرت آنفًا عن أصل صيني. عدا قصة واحدة محلية الأصل بدت لي مستحقة للسرد ردًا على من يعتقدون أن الشرق الأقصى يخلو من قصص الحب الرومانسي.

في ضواحي العاصمة خلف مقبرة معبد (سوزانچي) بيت منعزل يقطنه رجل عجوز يدعى (تاكاهاما). كان أهل الحي يحبونه لطريقته الودود، لكن معظمهم كانوا يشكون في سلامته العقلية. كانوا يعتقدون أن به بعضًا من خفة عقل، فهو لم يلتزم بالنذور البوذية التي توجب الزواج وتكوين أسرة. لم يكن (تاكاهاما) يهتم كثيرًا بالشأن الديني ولم يقتنع بالزواج قط، ومع ذلك لم يرتبط أبدًا بأي علاقة حب، بل عاش وحده ما يزيد عن خمسين عام.

وذات صيف مرض (تاكاهاما) وأدرك أن النهاية اقتربت، فأرسل في طلب أرملة أخيه وولدها الشاب ذو الأعوام العشرين الذي كان مرتبطًا به إلى حد كبير. أتى الاثنان سريعًا وبذلا جهدهما لتخفيف آلام العجوز في أيامه الأخيرة.

وفي ظهيرة حارة بينما الأرملة وابنها جالسان عند سرير (تاكاهاما) غط الرجل في نوم عميق، وإذ بفراشة بيضاء كبيرة تدخل الغرفة في اللحظة ذاتها وتستقر عند وسادته. حاول الشاب إبعاد الفراشة بمروحته لكنها سرعان ما

عادت إلى الوسادة، فأبعدها مرة ثانية وثالثة، لكنها كانت تعود في كل مرة. حاول مطاردتها عبر الحديقة إلى البوابة المفتوحة ثم إلى مقبرة المعبد، لكنها لم تبتعد كأنما تأبى الرحيل. وظن من تصرفها الغريب أنها ليست مجرد فراشة، وإنما هي روح شريرة.

واستمر يطاردها عبر المقبرة حتى حطت على ضريح امرأة، واختفت بشكل غامض.

عبثًا بحث عنها في كل مكان، ثم التفت إلى الضريح الذي كان يحمل اسم (أكيكو)، ولم يكن اسم العائلة واضحًا. كُتب على الشاهد أن (أكيكو) توفيت قبل حوالي خمسين عام في الثامنة عشرة من عمرها. ورغم القدم البادي على القبر الذي بني قبل نصف قرن إلا أنه كان في حال جيدة، فالأزهار اليافعة تحيطه، وحوض الماء مملوء حديثًا.

عندما عاد الشاب إلى غرفة عمه المريض وجده رحل عن عالمنا. أتاه الموت وهو نائم فأخذ روحه دون ألم ورحل تاركًا ابتسامة على شفتيه.

حكى الشاب لوالدته ما رآه في المقبرة، فصاحت: "آه، لا بد أنها كانت (أكيكو)".

سألها ابنها: "من تكون (أكيكو) يا أمي؟".

فأجابته: "عندما كان عمك الصالح شابًا خطب ابنة الجيران؛ فتاة ساحرة الجمال تدعى (آكيكو). لكنها ماتت

بالسل قبل أيام من موعد الزفاف. وقد حزن عمك لفراقها أيما حزن؛ فأقسم ألا يتزوج طوال حياته وبنى منزله الصغير قرب المقبرة حتى يجاورها دائمًا. ولمدة خمسين عام لم يدع عمك يومًا من شتاء أو صيف دون أن يذهب إلى قبرها. يتلو الصلوات، وينظف الشاهد، ويضع القرابين. لكنه لم يكن يحب الحديث عن الأمر، لم يكن يذكره أبدًا. وها هي روح (أكيكو) قد تجسدت في شكل الفراشة البيضاء وأتت لتأخذه في نهاية المطاف.

(4)

كدت أن أنسى ذكر رقصة يابانية قديمة تدعى (كوتشو ماي)؛ أي رقصة الفراشة. كان الراقصون يرتدون أزياء فراشات ويؤدون عروضهم في القصر الامبراطوري. ولست أعلم إذا كانت تؤدى في عصرنا الحالي؛ إذ يقال إن تعلمها صعب جدًا. تتطلب تلك الرقصة ستة راقصين يتحركون وفقًا لقواعد دقيقة تحدد كل خطوة وكل وضعية وإيماءة، فيدورون حول بعضهم البعض ببطء شديد على وقع الطبول والنايات والمصافير (61) غير ذات المثيل في الثقافة الغربية.

البعوض

اطلعت على كتاب (البعوض) لد. (هوارد) ساعيًا لحماية نفسي.

في حيي أنواع عدة من البعوض، لكن أحدها بعينه هو معذبي. مخلوق ضئيل جدًا تنتشر على جسده خطوط ونقاط فضية اللون، لدغته كحرق الكهرباء. حتى صوت طنينه ينبئ بطبيعة الألم الذي سيسببه، تمامًا كما تذكرك رائحة طعام بطعمه.

واكتشفت أن هذا النوع من البعوض شديد الشبه بالنوع الذي أسماه د. (هوارد) في كتابه باسم (ستيغومايا)، ويشبه كذلك (البعوضة خماسية الخطوط) التي تشابه عاداتها عادات (ستيغومايا). فهي مخلوقات نهارية لا ليلية يبلغ إزعاجها مداه بعد الظهر. وأدركت أن مصدر هذا البعوض مقبرة بوذية قديمة جدًا خلف حديقتي.

ينص كتاب د. (هوارد) على أن وضع قليل من الكيروسين أو البنزين في المياه الراكدة التي يتكاثر فيها البعوض كفيلة بإراحتك منه. ويشير أيضًا إلى النسبة القياسية وهي أوقية واحدة لكل خمسة عشر قدم مربعة من الماء. لكن من فضلك! ضع في اعتبارك ظروف الحي الذي أسكنه!

كما ذكرت، يأتي مضايقيّ من المقبرة البوذية. فأمام كل قبر تقريبًا في تلك المقبرة القديمة وعاء من الماء يدعى

(ميزوتامي). وهو في أغلب الأحيان تجويف مستطيل الشكل محفور في القاعدة العريضة للقبر. ويختلف شكله في قبور الأغنياء فلا تحوي هذا التجويف، بل يوضع الماء في خزان منفصل أكبر حجمًا ينحت من الحجر ويزين بشعار العائلة أو بعض النقوش الرمزية.

أما قبور الطبقة الفقيرة فلا هذا ولا ذاك، وإنما يضعون الماء في أكواب أو أواني أمام القبر، فموتاهم بحاجة للماء أيضًا رغم كل شيء. ويجب كذلك تقديم الزهور للميت، فتجد أمام كل شاهد زوجًا من مزهريات الخيزران أو أي نوع من المزهريات المملوءة بالماء. وفي المقبرة بئر يوفر الماء لزائريها حتى يملئوا الميزوتامي والأواني والمزهريات بالماء النقي.

لكن نظرًا لأن المقبرة من الطراز القديم الذي يحوي آلاف الميزوتامي وعشرات آلاف المزهريات، لا يمكن تجديد مياه كل تلك الأواني يوميًا، فيركد الماء ويكتظ بالحشرات.

ونادرًا ما تجف تلك الأحواض العميقة، فطبيعة (طوكيو) المطيرة تضمن لها تسعة أشهر على الأقل من الأمطار.

وفي تلك الأحواض والمزهريات يتكاثر أعدائي، ملايين منهم يولدون في ماء الموتى. وفقًا لمبدأ تناسخ الأرواح في الفكر البوذي قد يكون بعض تلك الحشرات تجسيدًا

لأرواح متوفي المقبرة الذين عوقبوا بحالة (چيكي كيتسو غاكي) أو (بريتاس) شرب الدماء؛ وهو تفسير جيد في الواقع؛ فلا مبرر لشر تلك المخلوقات إلا أن تكون أجسادها مسكونة بالأرواح الشريرة.

بالعودة لموضوع الكيروسين، فهو يقضي على البعوض عندما تغطى سطح المياه الراكدة بطبقة رقيقة منه لأنه يقتل اليرقات عندما تصعد إلى السطح للتنفس، ويهلك الإناث البالغات عندما يصعدن لوضع بيوضهن. ويذكر الكتاب أن تكلفة التخلص من البعوض في بلدة أمريكية يبلغ تعدادها خمسون ألف نسمة قد لا يتجاوز ثلاثمائة دولار!

أتساءل ماذا سيحدث إذا أمرت حكومة (طوكيو) المحلية -المعروفة بالعلم والتقدمية الصارمين- بتغطية جميع أحواض المقابر البوذية بطبقة رقيقة من الكيروسين! كيف ستستجيب الديانة التي تحرم المساس بالحيوات جميعًا- حتى الخفية منها- لهذا القرار؟ وكيف سيطيع المؤمنون بفضيلة الوفاء الأبوي (62) أمرًا كهذا؟

ضع في الاعتبار أيضًا التكلفة والوقت اللازمين لصب الكيروسين كل سبعة أيام في ملايين الميزوتامي وعشرات ملايين المزهريات الخيزرانية في مقابر (طوكيو)، أمر مستحيل!

لا بد إذًا من هدم المقابر المبنية على الطراز القديم

لنتخلص من البعوض في المدينة. لكنها لن تهدم وحدها، بل سيتوجب هدم المعابد البوذية المرتبطة بها أيضًا، ما يعني اختفاء عديد من الحدائق الساحرة ذات البحيرات مزهرة الضفاف، والنصب التذكارية المحفورة بالسنسكريتية، والجسور القوسية، والغابات المقدسة، وتماثيل بوذا بابتسامته المميزة.

إذا أردنا التخلص من البعوض سيتحتم علينا تدمير شعائر مذهب عبادة الأجداد، ويا لهذا من ثمن غال!

والحقيقة أني أود عندما تحين ساعتي أن أدفن في مقبرة بوذية على الطراز القديم حتى ترافقني أرواح ساكنيها؛ تلك الأرواح القديمة التي لا تعرف شيئًا عن انهيارات عصر (الميجي)، وموضاته، وانقلاب أحواله. ربما ستكون المقبرة العتيقة خلف حديقتي مدفنًا مناسبًا، فكل ما فيها مدهش الجمال، كل شجرة فيها وكل حجر شكلته أيد مندثرة، وأفكار لم تعد موجودة في أي عقل حي. حتى ظلال المقبرة ليست ظلالًا خلقتها شمس هذا الزمان، بل شمس أشرقت على زمان سحيق لم يعرف الطاقة البخارية، أو الكهرباء، أو المغناطيسية، أو حتى الكيروسين!

حتى دويّ الجرس الكبير؛ يثير في نفسي مشاعر غريبة ولذة خوف بعيدين أيما بعد عن نفسي التي تعيش في القرن التاسع عشر. لعمري لم أسمع صوت دويه إلا وشعرت بجزء في أعماق روحي يتحرك ويتراقص؛ كذكريات مليون موت وميلاد تكافح ظلمات روحي لتصل إلى نورها.

أتمنى أن أظل قريبًا من هذا الجرس، لا أحرم سماعه أبد الآبدين.

ونظرًا لاحتمالية أن أبعث في صورة (چيكي كيتسو غاكي)، أرغب أن تتاح لي فرصة التجسد الثاني داخل إحدى مزهريات الخيزران أو الميزوتامي، فأخرج منها في هدوء، أغني أغنيتي الرقيقة وألدغ بعض أناس أعرفهم.

النمل

(1)

سماء اليوم ساحرة نقية الزرقة بعد عاصفة ليلة أمس. يا لهوائها الطيب المحمل برائحة الراتنج الحلو الذي نثرته فروع أشجار الصنوبر بعدما كسرتها العاصفة. أسكنت رياح الجنوب الأرض فلا يصل مسمعي سوى صوت عصافير حديقة الخيزران المجاورة تجد سوترا (اللوتوس) بصوتها الهادئ كنداء الناي.

أخيرًا حل الصيف بعد طول غياب؛ فها هي الفراشات اليابانية زاهية الألوان تحوم هنا وهناك، وها هو الزيز يطقطق، والدبابير لا تكف عن الزنين، والناموس يتراقص تحت أشعة الشمس. أما النمل فمشغول بإصلاح أعشاشه التي تهدمت مذكرًا إياي ببيت من قصيدة يابانية:

“Yuku é naki: Ari no sumai ya! Go-getsu amé.”

"الآن لا مكان لتلك المخلوقات المسكينة؛ ويل لمساكن النمال من أمطار مايو!".

لكن النمل الأسود الكبير في حديقتي ليس بحاجة لأي شفقة، فقد نجا -بطريقة عصية على التصور- من العاصفة التي قلعت أكبر الأشجار ومحت الطرق وانهارت من شدتها المنازل. لم يتخذ النمل أي احتياطات سوى سد أبواب مدنه

التحت أرضية، وقد دفعني مشهد نصره هذا لكتابة مقال عن النمل.

وددت أن أفتتح مقالتي بشيء من الأدب الياباني القديم – عاطفيًا كان أو ماورائيًا-، لكن بحثي وأصدقائي اليابانيين لم يسفر إلا عن بضع أبيات غير ذات قيمة كبيرة، وجميع ما سواها أبيات صينية.

والحق أن تلك الأعمال الصينية غريبة، لكن أحدها استحق الاقتباس لعدم وجود بديل أفضل.

***

في مقاطعة (تايشو) الصينية عاش رجل تقيّ آمن بإلهة بعينها وعبدها بتفانٍ لسنوات وسنوات. وذات صباح بينما يصلي دخلت غرفته امرأة جميلة في ثوب أصفر ووقفت أمامه. سألها الرجل في دهشة عما تريد، وعن سبب اقتحامها مصلاه هكذا دون استئذان.

أجابته: "إني أنا الإلهة التي عبدتها بإخلاص وصدق نادري المثال، وقد جئت أثبت لك أن صلواتك لم تذهب عبثًا. أتعرف لغة النمل؟".

رد العابد: "إني مجرد رجل بسيط، جاهل أنا ولست بعالم. إني أجهل حتى لغة النبلاء".

ابتسمت الإلهة وأخرجت من صدرها صندوقًا صغيرًا كصناديق البخور، فتحته وأخذت بعضًا مما فيه بإصبعها

ودهنت به أذني الرجل ثم قالت: "حاول الآن إيجاد بعض النمل واستمع لحديثهم بعناية؛ ستفهمه وسيفيدك. لكن تذكر ألا تخيف النمل أو تغضبه".

واختفت الإلهة فجأة بذات الغموض الذي ظهرت به.

انطلق الرجل على الفور باحثًا عن بعض النمل، وقبل أن يتجاوز عتبة بابه لاحظ نملتين عند حجر يدعم أحد أعمدة المنزل. انحنى فوقهما وأصغى السمع ففوجئ بتمكنه من سماع حديثهما وفهمه، كانت إحدى النملتين تقترح:

- "فلنحاول إيجاد مكان أدفأ".

- "لم؟ ما مشكلة مكاننا هذا؟".

- "هناك كنز كبير مدفون بالأسفل يمنع أشعة الشمس من تدفئة الأرضية الرطبة".

رحلت النملتان معًا، وهرع الرجل يحضر مجرفة.

عندما حفر محيط العمود وجد جِرارًا مليئة بقطع الذهب، وأصبح الرجل من أغنى الأغنياء. حاول كثيرًا بعد ذلك أن يستمع لأحاديث النمل لكنه فشل، يبدو أن سحر الإلهة فتح آذانه للنمل ليوم واحد فقط.

***

مثلي الآن كمثل ذاك العابد الصيني، أعترف بجهلي الشديد وعجزي عن فهم أحاديث النمل؛ لكن جنية العلم أحيانًا ما تلمس بعصاها عيناي وأذناي فأنعم بوهلة قصيرة

أسمع فيها ما لا يُسمع، وأرى فيها ما لا يُرى.

(2)

لن يسعد البعض بما سأقوله عن النمل للسبب ذاته الذي يغضب بعض الأوساط المتدينة عندما نذكر أن شعبًا غير مسيحي قد خلق حضارة تفوق منظومتها الأخلاقية منظومتهم. على أن هناك رجال بلغوا من الحكمة ما لا أتصور بلوغه يومًا استطاعوا تأمل الحضارات والحشرات بشكل مستقل عن نِعم المسيحية؛ وإني لأجد تشجيعًا في كتاب (تاريخ كامبريدج الطبيعي) الجديد الذي دون فيه البروفيسور (داڤيد شارب) ملاحظته التالية بشأن النمل:

"لقد كشفت لنا الملاحظة عن الظاهرة الأكثر تفردًا في حياة تلك الحشرات. ولا يمكننا التغاضي عن حقيقة أنها اكتسبت مهارات التعايش المجتمعي بشكل أكثر كمالًا منا نحن البشر، وأنها سبقتنا في كثير من الصناعات والفنون التي تسهل الحياة الاجتماعية بشكلٍ كبير".

أعتقد أن من الصعب على أي مطلع معارضة هذه الحقيقة التي قررها متخصص؛ فالعلماء المعاصرون وإن جانبتهم مشاعر التعاطف ناحية النمل أو النحل، إلا أن أحدهم لن يتردد في الاعتراف بتقدمية تلك الفصيلة الحشرية ومجاوزتها الإنسان فيما يتعلق بالتطور الاجتماعي. بل إن السيد (هربرت سبنسر) -الذي لن يصفه أحد بالعاطفية قط- جاوز وصف البروفيسور (شارب) للنمل بقوله إن النمل متفوق على البشر أخلاقيًا واقتصاديًا، إذ

يخصص حياته كاملة للعطاء والتضحية من أجل الآخرين.

ويؤكد البروفيسور (شارب) رأيه بتعليقه: "إن كفاءة النمل أكثر فعالية من كفاءتنا، إذ هي مكرسة لمصلحة المجموع لا الفرد، فالنمل يهب حياته ويضحي بها لصالح مجتمعه".

وهذه الفرضية صحيحة على الأغلب؛ فرضية أن الإنسان بطبيعته يرفض الأنظمة الاجتماعية التي تضحي برفاهية الفرد لأجل الصالح العام. ويرجع ذلك إلى حقيقة أن الإنسان لم يتطور للشكل الأمثل بعد، وأن المجتمع لا زال يستفيد من تطور أفراده. وهو ما يتضاد مع عقلية الحشرات الاجتماعية موضوع الحديث.

يقول (هربرت سبنسر): "إن أفضل آلية لتطوير للفرد تتمثل في تمكينه من التعاون مع مجتمعه، ومساهمته المثلى في راحة جنسه، وهو ما يضمن استمرارية النوع". وبعبارة أخرى؛ إذا ارتبطت القيمة الفردية بالمصلحة العامة وحدها، ستصنف تضحيات الأفراد استنادًا إلى المنفعة أو الضرر الذي سيلحق المجتمع جراء هذه التضحيات الفردية.

وكما سنرى الآن فإن أكثر ما يثير الاهتمام في مجتمع النمل هي منظومته الأخلاقية التي تفوق مستوى النقد البشري. إذ تتحقق فيها القيمة المثلى للتطور الأخلاقي، والتي وصفها البروفيسور (سبنسر) باعتبارها "حالة توازن فيها

الأنانية والإيثار حتى تمازجا وصارا واحدًا". بمعنى أن لذة الفرد الممكنة الوحيدة قد أصبحت عمله لأجل مجتمعه.

ونقتبس من البروفيسور (سبنسر) مرة أخرى وصفه لأنشطة مجتمع الحشرات بأنها "أنشطة تدع رفاهية الفرد تمامًا إلى رفاهية المجتمع، بحيث يبدو أن حياة الفرد لا يُهتم بتحسينها إلا بالقدر اللازم لتحسين حياة المجتمع من خلالها. فلا يحصل الفرد إلا على الحد الأدنى من الطعام والراحة اللذان يكفيانه للحفاظ على نشاطه داخل نطاق المجتمع".

(3)

آمل أن يكون القارئ على علم بأن النمل يمارسون البستنة والزراعة، ويبرعون في زراعة الفطر. وأنهم روضوا-وفقًا لما نعرف حتى الآن-خمسمائة وأربع وثمانين نوعًا مختلفًا من الحيوانات. كما تمكنوا من حفر أنفاق في الصخور الصلدة، وعرفوا كيفية التصدي للتغيرات المناخية التي قد تهدد سلامة صغارهم. كما أن أعمارهم طويلة بشكل استثنائي مقارنة بأعمار الحشرات، فبعض أنواع النمل المتطورة تعمر لسنوات.

لكني لست مهتمًا بهذه المسائل بشكل خاص بقدر ما أهتم بقيم النمل الأخلاقية وانضباطه الرهيب (63) . إن مثلنا الأخلاقية وإن علت لا تقارن بمثل النمل، وإن قورنت سنجدهم يسبقوننا بملايين السنين! وعندما أقول النمل لا أعني كل أنواعه، بل أعلاها.

ما نعرفه من أنواع النمل حوالي ألفي نوع، ويظهر في التنظيمات الاجتماعية لهذه الأنواع درجات متباينة من التطور. ولبعض الظواهر الاجتماعية في هذه المجتمعات أهمية بيولوجية كبيرة تربطها علاقة غريبة بالشأن الأخلاقي. وسندرس هذه العلاقة في أنواع النمل العليا، إذ هي المثال الأكثر وضوحًا.

لا أعتقد أن أحدًا يستطيع إنكار الطابع الفردي للنمل، خاصة بعد كل ما كتب ونشر في السنوات الأخيرة

عن تعلم النمل من أقرانهم في حياتهم الطويلة. إن ذكاء تلك المخلوقات الصغيرة في مواجهة الصعوبات الجديدة وقدرتها على التكيف مع على الظروف الدخيلة يثبتان قوة في التفكير المستقل لا يستهان بها. لكن هناك أمرًا واحدًا أكيدًا: أن النملة الواحدة وإن استقل تفكيرها تعجز عن التصرف بأنانية. وأعني الأنانية هنا بمعناها المعروف؛ فلا يمكن أن نتصور نملة جشعة، أو أخرى شهوانية، أو ترتكب أيًا من الخطايا السبع المميتة، ولا حتى خطيئة بسيطة صغيرة. وبالمثل أيضًا لا يمكننا تخيل وجود نملة رومانسية، أو نملة تتحمس لأيديولوجيتها الفكرية، أو نملة تنظم الشعر، أو تميل للتأملات الميتافيزيقية.

لا يمكن لعقل بشري أن يصل إلى الإتقان التام الذي وصله النمل في شؤون الحياة، كما لا يمكنه أيضًا أن يطور عقلية عملية بحتة كعقلية النمل. ومع ذلك فإن العقل العملي يتفوق من ناحية استحالة وقوعه في الأخطاء الأخلاقية. ربما لا يعرف النمل الأفكار الدينية، لكن من المؤكد أنه ليس بحاجة لها، فاستحالة الزلل الأخلاقي أمر يتخطى الحاجة إلى هداية روحانية.

إن تصورنا لمجتمع النمل وأخلاقه لهو تصور غامض، أقرب لتصور حالة يستحيل وجودها في بني البشر ومنظوماتهم الأخلاقية. لذا تقريبًا للصورة؛ دعونا نتخيل عالمًا أغلبه من نساء يعملن بكد وبلا هوادة، لا يأكلن إلا ما يقيم عودهن، ولا ينمن إلا بالقدر الذي يحافظ

على طاقتهن. وتكوينهن جميعًا من الدقة أن أي حركة غير ضرورية قد تؤدي لاضطراب في الوظائف.

تقوم أولئك العاملات يوميًا بمهام شاقة كبناء الطرق والجسور، وقطع الأخشاب، وبناء أنواع من المعمار لا تعد ولا تحصى. كما يمارسن البستنة، والزراعة، وتقمن على تغذية وإيواء مئات أنواع الحيوانات المستأنسة، وصناعة منتجات كيميائية متنوعة، وتخزين شتى أنواع المواد الغذائية، ورعاية الصغار. يبذلن كل هذا الجهد من أجل المجتمع الذي لا يعرف أفراده فكرة المِلكية-على الأقل بشكلها الفردي-، وهدفهن الوحيد وشغلهن الشاغل هو تدريب النشء.

يعيش النمل فترة طفولة طويلة؛ إذ أن الصغار لا يكونون عاجزين فحسب بل غير مكتملي التشكل أيضًا. ما يعني أنهم حساسون بشكل يوجب حمايتهم بعناية فائقة من أي متغيرات حتى درجة الحرارة. ولحسن الحظ تفهم الممرضات القوانين الصحية؛ فتعرف كل واحدة دورها المتعلق بالتهوية، والتطهير، والصرف الصحي، والرطوبة. وتدرك أيضًا خطر الجراثيم التي يرونها بأبصارهن الضعيفة ربما كما نراها نحن تحت المجهر. إن كل ممرضة تفهم مسؤوليتها وطبيعة عملها لدرجة يستحيل معها الخطأ في أي شأن طبي.

ورغم العمل المستمر تحافظ كل عاملة على نظافتها الشخصية حفاظًا تامًا، وتتجمل عدة مرات يوميًا بالأمشاط

والفرش المرفقة بمعصميها منذ الميلاد حتى لا تضيع الوقت. وتحافظ العاملات كذلك على الصورة المثالية لمنازلهن وحدائقهن من أجل الأطفال، ولا عذر لتعطيل الروتين اليومي للتنظيف والتعقيم والكنس إلا كارثة كبرى؛ لا أقل من زلزال، أو فوران بركاني، أو فيضان، أو حرب ضروس.

(4)

في هذا العالم حقائق أخرى أكثر غرابة؛ كحقيقة أنه عالم عذري. صحيح أنك ترى الذكور في بعض الأحيان، لكن ظهورهم مشروط بفصول معينة، ولا علاقة لهم بالإناث العاملات أو طبيعة سير العمل؛ فلا يجرؤ أحدهم أن يحادث عاملة إلا في ظروف الخطر المشترك الاستثنائية. وكذلك لا تهتم أي عاملة بالحديث إلى ذكر؛ فذكور هذا العالم الغريب كائنات ذليلة عاجزة عن القتال والعمل، تحتملهن النساء فقط بوصفهم شر لا بد منه.

فئة خاصة وحيدة لا تعمل نسائها ويتعاملن مع الذكور أيضًا، ألا وهي فئة الأمهات. فيضطررن للاقتران بالذكور لفترة قصيرة في فصول معينة حفاظًا على استمرار النوع لا أكثر. أما العاملات فلا تحلمن حتى بالتزاوج، ليس فقط حفاظًا على وقت العمل الثمين، ولا لاحتقارهن الكبير للذكور، لكن لأن جسد العاملات غير مؤهل للتزاوج من الأصل. ورغم أن بعض العاملات قادرات على التكاثر البارثينوجيني أي الإنجاب دون الحاجة لآباء؛ إلا أن العاملة وإن سمحت لها طبيعتها الجسدية تمنعها غريزتها الأخلاقية. فيختفي منها ذلك الجانب الأنثوي ولا يبقى من أنوثتها سوى الرقة، والصبر، والتضحية، والصفات التي نصنفها أمومية بشكل عام. أما جنسانيتها فتختفي تمامًا كجنس التنين البتول في الأسطورة البوذية.

والعاملات إلى جانب تزويدهن بأسلحة- دفاعًا عن أنفسهن أمام المفترسات والأعداء- محميات بقوة عسكرية كبيرة؛ هي فصيلة المجندات.

تفوق المجندات العاملات حجمًا في بعض المجتمعات حتى ليصعب على المرء تصور أنهن من الجنس ذاته، فكثيرًا ما نرى مجندات تبلغ أحجامهن مائة ضعف أحجام العاملات. لكن تحريًا للدقة فهذه الفصيلة ليست إناثًا بالضبط، بل هن أنصاف إناث أقرب للأمازونات (64) ؛ فصيلة قادرة على القتال وسحب الأثقال تقتصر مهامهما على الحماية والأعمال التي تتطلب القوة البدنية.

[إن التساؤل عن سبب تطور الإناث لمقاتلات وعاملات بدلًا من الذكور ليس تساؤلًا بسيطًا كما يبدو عليه، حتى أني غير واثق من قدرتي على الإجابة، وإن كنت أرجح أن الطبيعة كانت عامل الحسم في المسألة. فالإناث في كثير من أشكال الحياة الطبيعية يفقن الذكور في الحجم والقدرة، وربما كان السبب في حالتنا هذه أن فئة الإناث الأكثر قوة تطورت بشكل أسرع وأكثر فاعلية؛ فنتج عن تطورها فئة من المقاتلات الخاصة. أي أن الإناث ذوات الخصوبة حولهن طاقاتهن في خلق الحياة إلى طاقة حماية وقدرة على العمل].

إن عدد الأمهات المنتخبات -الإناث الحقيقيات- قليل جدًا، ولهذا يعاملن كملكات تُخدمن بتقديس على الدوام. حولهن يدور نشاط النوع بأكمله، كل ذكاء النمل وجهده

مكرسان فقط لراحة أولئك الأمهات وأطفالهن. تعمل العاملات على تحقيق جميع رغباتهن حتى لا يكون لهم أي هم في الدنيا سوى التناسل. ويتلقين الاهتمام ليلًا نهارًا بكل الطرق الممكنة؛ فوحدهن من تأكلن بوفرة، تأكلن وتشربن وتسترحن الراحة التي تحتمها عليهن واجباتهن الفسيولوچية. ونادرًا ما تخرجن من المستعمرة، وإن حدث يكون مع مرافقة قوية تمنع عنهن أي تعب أو مخاطرة غير ضروريين. وإن كنت أعتقد أن الأمهات لا ترغبن في الخروج أصلًا.

أخيرًا وفي أقل المراتب أهمية: أزواج الأمهات، الشرور الضرورية؛ الذكور.

لا يظهرون إلا في أوقات معينة كما ذكرنا سابقًا، ودورة حياتهم قصيرة جدًا. ورغم أنهم مقدرون للزواج من ملكات إلا أنهم ليسوا من النسل الملكي، بل هم مجرد أبناء بارثينوچينيين ولدوا دون تدخل ذكري. ولهذا السبب أيضًا فهم مخلوقات دنيا، مجرد نتاج لصدفة وراثية غامضة ما. ويسمح بوجودهم بأعداد قليلة جدًا تساوي بالكاد عدد الأمهات، وتموت هذه القلة فور أداء مهمتها.

إن مغزى قانون الطبيعة في هذا العالم الغريب هو ما مثله (چون راسكن) في قوله إن العيش دون هدف جريمة. وبما أن الذكور ليسوا عمالًا أو مقاتلين فإن أهمية وجودهم مشروطة بمهمتهم الموقوتة. على أن ذكور النمل في الواقع ليسوا ضحايا، ليسوا مثلًا كمختار قبيلة (الأزتيك)

لاحتفالية (تيسكاتليبوكا) الذي يمزق قلبه بعد عشرين يومًا من الزواج، بل هم أكثر حظًا بقليل. فهم ينشئون على دراية بقدرهم: عرسان ملكيون لليلة واحدة يفقدون بعدها حقهم الأخلاقي في الحياة. زواجهم يعني موتهم المحتوم الذي لا يأملون بعده حتى أن تحزن عليهم أراملهم الشابات اللواتي تبقين بعدهم على قيد الحياة لأجيال وأجيال!

(5)

كل ما ذكرناه حتى الآن مجرد مقدمة لعالم الحشرات الرومانسي في واقعه رغم كل شيء.

إن أكثر اكتشافاتنا إذهالًا بشأن تلك الحضارة المدهشة هو فكرة قمعها للجنس؛ حيث يختفي الجنس تمامًا بين غالبية النمل العظمى، ويظهر فقط في الطبقات العليا بالقدر الضروري لاستمرارية النوع. لكن المذهل ليس اختفائه البيولوجي بل الأخلاقي، إذ يبدو أن هذا القمع أو التنظيم للجنس أمر اختاره النمل بمحض إرادته! فقد اكتشفنا أن النمل تعلم كيفية لتعطيل الرغبة الجنسية منذ سن صغيرة عن طريق أسلوب غذائي معين. لقد نجح النمل في كبح أكثر الغرائز الطبيعية جموحًا، ورغم ذلك استطاع تنظيم عملية التكاثر بشكل يجنبه الانقراض. وهذه الحقيقة وإن كانت مدهشة إلا أنها واحدة من أنظمة كثر نجح النمل في خلقها واتباعها.

فلم يقتل في نفسه الرغبة الجنسية وحدها؛ بل نجح من خلال التعديل الفسيولوچي في قمع الأنانية بمعناها الشائع. فلا تلبي النملة أي رغبة طبيعية تراودها إلا إذا كانت ستفيد مجتمعها بشكل أو بآخر، حتى الاحتياج للغذاء والنوم لا تشبعه إلا بالقدر المطلوب للحفاظ على نشاطها. إن أفراد النمل تنكر نفسها ورغباتها للصالح الجماعي، والجماعة ترفض قدر المستطاع أن يحكمها الحب أو الجوع.

لقد نشأنا معتقدين أن وجود الأديان شرط أساسي لقيام الحضارات؛ إذ كيف ستبنى الحضارات دون أمل في مكافأة أو خوف من عقاب أخرويين؟ تعلمنا أن غياب القوانين والشرطة التي تنفذ القوانين ستخلق أناسًا يسعون إلى مصالحهم الشخصية على حساب الآخرين. تبنينا اعتقاد أن القوي في ظل غياب القانون سيأكل حق الضعيف، وستختفي الرحمة والتعاطف من قلوبنا حتى ينهار النسيج المجتمعي بأكمله. وهذه المعتقدات التي تعترف بالنقص الكامن في طبيعتنا البشرية مبنية على أسس حقيقية، لكن أولئك الذين اعترفوا بهذه الحقيقة العارية قبل آلاف وآلاف السنين لم يتصوروا وجود مجتمع تنعدم فيه الأنانية بطبيعته. وربما كان يتوجب على الطبيعة أن تدلنا على وجود مثل هذا المجتمع الذي يبني سعادته على العطاء دون حاجة لفكرة الواجب، ذلك المجتمع الذي جانب فكرة القوانين لأن كل فرد فيه يولد صالحًا مؤثِرًا بالطبيعة، لا يحتاج حتى أصغر أفراده لتعلم أي أخلاقيات.

إن هذه الحقائق تفتح المجال للمؤمنين بنظرية التطور ليطرحوا فكرة أن ما نؤمن به من مُثل أخلاقية مجرد منظومة مؤقتة؛ إذ يبدو أن هناك قيمًا أسمى من الفضيلة، واللطف، ونكران الذات قد نصل لها في زمن ما تحت ظروف أخرى. وهنا يطرح السؤال نفسه: إذا تخلص العالم من مفاهيمه الأخلاقية التي تنظم الحياة المعاصرة؛ ترى

هل سيكون مكانًا أفضل؟ وأجد نفسي أتساءل أيضًا، ترى هل تعني حاجتنا للأديان والقوانين والنظم الأخلاقية أننا في سفح هرم التطور الاجتماعي؟ وتوصلنا تساؤلاتنا إلى سؤال أخير: ترى هل تصل البشرية يومًا إلى حالة أخلاقية يندثر معها الشر وتتحول الفضيلة إلى غريزة، فتنعدم بذلك حاجتنا لآخرة أخلاقية كمجتمعات النمل العليا؟

لقد أولى كبار المفكرين هذا السؤال اهتمامًا عظيمًا، وأجاب معظمهم عنه بالإيجاب. فيعتقد (هربرت سبنسر) أن البشر سيصلون يومًا إلى حالة من التحضر شبيهة بحضارة النمل، ويقول بهذا الصدد: "إذا تمكنت مخلوقات طبقة دنيا من تطويع الطبيعة وتعديلها بشكل تصبح فيه الأنشطة الإلزامية رغبات طبيعية، فلا شك أن البشر قادرون على هذا أيضًا في ظروف مختلفة. وكم من أمثلة ضربتها الحشرات الاجتماعية بهذا الخصوص، فالطبيعة زاخرة بأمثلة توضح كيف يستطيع الفرد الفناء في المجموع. ولا يمكننا الافتراض أن النمل أو النحل يشعرون بالواجب أو يؤمنون بالتضحية بالمعنى الذي نؤمن به، بل تظهر لنا الحقائق أن هذه هي طبيعتها النظامية التي طورتها لخدمة أهدافها المشتركة، تمامًا كما طورت كائنات أخرى أنفسها لخدمة أهدافها الفردانية. وفي الحالة الأولى فإن هذه الأهداف المشتركة لا تخلو من أنانية، لكنها أنانية تهدف راحة المجتمع وتلبية احتياجاته. لذا ربما نطور مع مرور الزمن حالة عكس حالتنا، تكون الأولوية فيها للمجتمع،

ويعمل أفراده جميعًا على خدمته مستقيين سعادتهم من أداء واجباتهم ناحية الآخرين، فننعم نحن أيضًا ب حالة يتوازن فيها الأنانية والإ يثار حتى يتمازجا ويصيران واحدًا".

(6)

بالطبع لا يعني التوقع السابق أن البشر سيتعرضون لتغير فسيولو چ ي مماثل للتغير الذي شكل هيكلية المجتمعات الحشرية. فليس علينا إذًا أن نتخيل مستقبلًا بشريًا غالبيته النشطة من الإناث والأمازونات اللواتي تعملن على خدمة أمهات مختارة. في فصل "البشر في المستقبل" لم يقدم السيد (سبنسر) تصورات لتعديلات فسيولو چ ية حتمية الحدوث لخلق نظام أخلاقي أرقى، لكنه رغم ذلك توقع للبشر في المستقبل أجهزة عصبية أكثر تطورًا يصاحبها نقص في الخصوبة. على أني أعتقد أن هذا يعني بشكل أو بآخر أن التطور الأخلاقي سيتطلب تغييرًا فسيولو چ يًا كبيرًا.

لكن إذا كان من حقنا الإيمان بمستقبل للبشرية أساسه مسرة العطاء المتبادل؛ ألا يحتمل وقوع تغيرات أخرى سلبية سواء على الجانب المادي أو الأخلاقي؛ وهو أمر أثبت علم الحشرات أنه ليس بعيدًا عن الواقع؟ لا أعلم. إني أحمل للسيد (هربرت سبنسر) كل احترام وتقدير، واعتبره أنبغ فيلسوف شهده العالم حتى الآن، ولكم أكره أن أكتب شيئًا يتعارض مع ما تعلمته منه فيظن القارئ أني أدعي فلسفة لا أملكها. على أي حال ففي الفقرة التالية تأملاتي الخاصة؛ وإن كنت مخطئًا فالخطأ خطئي وحدي.

إني أتبنى فرضية أن التحولات الأخلاقية التي تنبأ بها

السيد (سبنسر) غير ممكنة التحقيق إلا بتدخل فسيولو چ ي، لكن هذا التغير سيكون مرعب الثمن. فقد حققت الحشرات اليوتوبيا الأخلاقية بعد ملايين السنوات من الكفاح المستمر ضد رغباتها حتى الضروري منها؛ وهو أمر رغم شقه على البشر إلا أنهم قد ينجحون فيه في نهاية المطاف. لكن السيد (سبنسر) يرى أن العالم لم يشهد مأساته الأعظم بعد؛ ويرى أن هذه المأساة ستكون نتاج ضغوط سببها انفجار سكاني لم يشهد له العالم مثيلًا. وفي ظل هذه الضغوط أعتقد أن الجنس البشري سيشهد أيضًا مستويات متزايدة من الذكاء والتعاطف؛ وسيتناسب هذا الذكاء تناسبًا عكسيًا مع مستوى الخصوبة. فتكون الحقبة التالية لحقبة الانفجار حقبة انخفاض سكاني هائلة؛ وهو الأمر الذي لن يحقق الرفاهية للبشرية، لكنه سيخلصها على الأقل من الأعداد الزائدة التي كانت سبب المعاناة في المقام الأول، فتتحقق بذلك حالة نسبية من التوازن الاجتماعي الذي لن يستطيع البشر الوصول إلى حالته المثلى أبدًا.

إلا إذا اكتشفنا طريقة لحل مشاكلنا الاقتصادية كما فعلت الحشرات عندما قمعت الجنس كوسيلة لحل مشاكلها.

بفرض أن البشر سيتوصلون إلى اكتشاف مماثل يوقف جنسانيتهم منذ الصغر فيتوجهون لتطوير قواهم والاهتمام بأنشطة أسمى؛ قد تكون النتيجة حالة من التعددية تماثل

حالة النمل. وتنقسم الأجيال القادمة بناء على ذلك إلى طبقات دنيا في خدمة طبقات عليا، وربما تتطور إناثه عن ذكوره كذلك ويصبح معظمه كائنات عديمة الجنس أيضًا!

لكن بالنظر إلى عدد الزاهدين عن الجنس حاليًا لأسباب إنسانية (ناهيك عن الدوافع الدينية)؛ فليس من الصعب تصور عالم يعزف فيه البشر عن الجنس لأجل الفائدة العامة، لا سيما وأن بعض هذه الفوائد غير بعيد المنال. أحدها على سبيل المثال الزيادة الهائلة في متوسط عمر الإنسان الطبيعي، بشرط أن يحدث هذا العزوف بشكل طبيعي كما في مجتمع النمل. وكلما تمكن الإنسان من السيطرة على غريزة الجنس كلما اقترب من تحقيق حلم الحياة لألف عام.

إن حيواتنا قصيرة جدًا بالمقارنة مع ما نريد إنجازه، وكلما تطور العلم واكتشافاته التي لا تنضب كلما زادت بمرور الوقت أسباب تمنينا لحياة أطول. إن الأمل في أن يكتشف العلم إكسير الحياة الذي حلم به قدماء الخيميائيين أمل ضعيف، إذ لن يدعنا الكون نخدع قانونه الواضح: لكل شيء ثمن. وربما يكون ثمن الحياة الطويلة مماثلًا للثمن الذي دفعه النمل. وربما دفع أقادم سكان كوكب آخر هذا الثمن لقاء أن ينقسم مجتمعهم بشكل لا نتصوره إلى طبقات مختلفة عن باقي المخلوقات جميعًا.

(7)

إن ما قدمه علم الحشرات لنا بشأن مسار تطور الإنسان في المستقبل، إذا كان يوحي بشيء يخص العلاقة بين النظم الأخلاقية وقوانين الكون؛ فإنما يوحي بأن القوانين الكونية لن تسمح بمزيد من التطور لفصيل غير سوي الأسس الأخلاقية مثلنا نحن البشر. وحسبما يبدو في الطبيعة فقوة التخلي عن الأنانية هي الأعلى منزلة على الإطلاق، ولن يسمح الكون أبدًا بسلطة تطورية مدارها القسوة أو الشهوة. ربما لسنا على يقين من وجود آلهة، لكن من المؤكد أن قوى الكون التي تحكم كل أشكال الحياة أكثر صرامة من الآلهة ذاتها. وربما أعجزنا الكون عن إثبات "الميل الدراماتيكي" لحركة أجرام السماء، لكنه منحنا بالتأكيد أدلة قاطعة تثبت قيمة النظم الأخلاقية التي تعارض في جوهرها أنانية الإنسان.

النهاية.

---

(1) نوع من الآلات الوترية، لها أربعة أوتار ويعزف عليها بعصا صغيرة تصنع غالبًا من قرون الحيوانات، وتسمى عصى (باتشي).

تستخدم البيوا بشكل رئيسي في الحكي أو الإنشاد على أنغام الموسيقى. في القديم كان يطلق على عازفي البيوا المحترفين لقب (بيوا هوشي) أي (كهنة البيوا)، وأصل هذه التسمية غير معروف لكن يرجح أن حلق العازفين لرؤوسهم كالكهنة البوذيين هو الاحتمال الأقرب.

(2) الدايميو: كبار الزعماء الإقطاعيين.

(3) صيغة مهذبة لطلب فتح البوابة، كان فرسان الساموراي يستخدمونها ليطلبوا من حراس البوابة السماح لهم بالدخول.

(4) (هانيا شين كيو) هو الاسم الياباني للسوترا الصغرى، أو سوترا (براغنا بارميتا هريدا).

وقد ترجم الأستاذ الراحل (ماكس مولر) السوتراتين الصغرى والكبرى المعروفتين أيضًا باسم (براجنا بارميتا-الحكمة الفائقة)، ويمكن قراءتهما في المجلد التاسع والأربعين من مجموعة مجلدات (الأديان المقدسة في الشرق - سر بوذية الماهايانا).

وفيما يتعلق باستخدام نصوص السوترا الصغرى بالشكل المذكور في القصة، فالسوترا في موضوعها هي الخروج من الفيزيائية إلى الفراغ، أو في قول آخر: فكرة لا حقيقية الظواهر والموجودات.

"ما الجسد إلا فراغ، وما الفراغ إلا جسد. الوعي، والاسم، والمفهوم، والمعرفة هم فراغ أيضًا. فلا وجود للعين والأذن والأنف واللسان والجسد والعقل إذا تحرر الإنسان من وعيه بوجودهم، فإذا فعل جانبه الخوف؛ وخارج قيد الخوف يصل إلى النيرڤانا الكاملة."

(5) نوع من البط البري الياباني.

(6) يعمل بالصِقارة وهي تربية الصقور للصيد.

(7) طير الأوشيدوري رمز للحب والوفاء في الثقافة اليابانية، وغالبًا ما يصور على هيئة زوجين، لذا يعتبر قتله أمرًا جالبًا للتعاسة، خاصة العاطفية.

(8) نبات مائي ينمو على جانب البحيرات والأنهار، ويتميز بلون أخضر داكن.

(9) الاسم البوذي (Zokomyo) هو الاسم الذي يعطى للمتوفى بعد وفاته، وهو طقس بوذي يُعتقد أنه يوجه الروح في رحلتها الجديدة ويضمن لها الراحة والسلام الأبديين.

(10) خزانة خشبية مزخرفة توضع بها الصور، والشموع، والبخور، والأيقونات الدينية البوذية كالتماثيل، وركنها في المنزل هز ركن الصلاة والتأمل وإظهار الاحترام للراحلين.

(11) يطلق اسم (ياشيكي) على حدائق أو أفنية منازل الأثرياء.

(12) خط من الأحجار المنفصلة يكونون معًا ممرًا أو ممشى، وهو تصميم ياباني مستعمل في الحدائق حتى اليوم.

(13) نهاية نصل السيف.

(14) نصب تذكاري بوذي يقام للموتى.

(15) بين الواحدة والثالثة بعد منتصف الليل.

(16) عملة نقدية.

(17) مكان منعزل يعيش فيه النساك والكهنة البوذيون.

(18) الباب من نوع (شوغي) وهي الأبواب اليابانية التقليدية، تصنع غالبًا من الورق وتفتح بدفعها إلى الجانب.

(19) عفريت يأكل لحم البشر، ويطلق عليه بالسنسكريتية (راكشاسا). وينتمي (الجيكينيكي) لأشباح فئة (بارامون-راستسو-غاكي)، وهي الفئة السادسة والعشرين من فئات (بريتاس) كما ذكرتها الكتب البوذية القديمة.

(20) صلاة تقام للأرواح التي دخلت إحدى حالات (بريتاس) أو الأرواح الجوعى، فوفقًا للمعتقدات البوذية اليابانية يتحول الجشعون والأنانيون بعد موتهم إلى كائنات لا تشبع ولا ترتوي، بل تعيش حالة أبدية من الجوع والعطش.

(21) قبر من خمسة أجزاء متراكبة، لكل جزء شكل مختلف يرمز إلى أحد عناصر الطبيعة الخمسة: الأُثير، والهواء، والنار، والماء، والتراب.

(22) نباتات دقيقة أشبه بالطحالب، تلتف حول محيطها.

(23) قناة مائية كانت تحفر قديمًا حول القلاع وتملأ بالماء لمنع العدو من الوصول إليها.

(24) وسيلة نقل كانت تستخدم في الصين واليابان قديمًا كسيارة أجرة، وهي عربة صغيرة لها عجلتان ويجرها شخص واحد.

(25) كائن أسطوري ياباني يعتقد أنه نوع من الأشباح أو الشياطين، ممسوح الملامح تمامًا وقادر على تحويل شكله واتخاذ صور أخرى.

(26) نوع من الشعيرية اليابانية تصنع من دقيق الحنطة السوداء

(27) عصر إيكيو 1429م - 1441م.

(28) محافظة (ياماناشي) حاليًا.

(29) (يونسوي نو ريوكاكو): يطلق على الكهنة الرحالين.

(30) حفرة مربعة في أرضية الغرفة تبطن بالمعدن ويشعل فيها الفحم، وهي نوع من المدافئ اليابانية.

(31) نوع من اليرقات يصدر صوتًا مميزًا أشبه بصوت جرس صغير،

يطلق عليها أيضًا حشرات الجرس

(32) الروكوكوبي نوع من الشياطين تتحرك رؤوسها دون أجسادها لمسافات طويلة، لكنها تظل على ارتباط بالجسد.

(33) مجموعة صينية عن الظواهر الخارقة للطبيعة.

(34) الهدية التي يقدمها المسافر لأهله وأصدقاءه بعدما يعود من رحلته، وترمز المياغيه عادة للمنطقة التي زارها المسافر، فتكون محلية الصنع على الأغلب.

(35) محافظة (ناغانو) حاليًا.

(36) رداء الكهنة البوذيين.

(37) كانت سيدات العاصمة تدرسن مجموعة من المهارات الهامة لسيدات المجتمع الراقي، كالموسيقا، والرقص، والإتيكيت، والأدب والشعر، والتطريز، والرسم.

(38) خزانة خشبية صغيرة عبارة عن أدراج للتخزين.

(39) أحد الكتب البوذية المقدسة، ويحوي التعاليم والمبادئ الأساسية لفلسفة البوذية وممارساتها.

(40) صوت قوي عنيف لتلاطم تيارات الماء في النهر

(41) ظاهرة انعكاس الضوء المحيط على الثلج خالقًا هالة من الإضاءة البيضاء، يطلق عليها في اليابانية (يوكي أكاري).

(42) مثل شعبي ياباني.

(43) 1469-1489

(44) طبقة من صغار ملاك الأراضي الزراعية، وفلاحي مزارع الإقطاعيين، وموظفي منازل النبلاء في القرن الخامس عشر.

(45) المقاطع الصوتية اليابانية.

(46) كانت الينات العشر تمثل ثروة هائلة في تلك الحقبة من الزمان.

(47) إفراز عضوي يحوي المواد الهيدروكربونية من النبات، ولا سيما الأشجار الصنوبرية.

(48) نوع من الأقمشة المتينة يصنع من القطن أو الصوف السميك.

(49) الكتاب المقدس: (يو 15: 13)

(50) شخصية أسطورية في الميثولوجيا الإغريقية اشتهر بسبب عذابه الأبدي، إذ حُكم عليه أن يقف في بركة ماء تحت شجرة فاكهة ذات أغصان منخفضة ، وتبقى ثمارها في متناول يده للأبد، بينما يحسر الماء دومًا كلما أراد أن يشرب منه.

(51) زهرة تشبه في شكلها أجنحة الفراشة.

(52) "The modest nymph beheld her God, and blushed".

ويظهر في البيت التلاعب الرشيق بالكلمات الذي يبرع فيه الشعراء اليابانيون. فكلمة (nymph) تعني الجنية، وتعني أيضًا النافورة أو ينبوع الماء.

فيصبح للبيت معنيان: "رأت الجنية الصغيرة إلهها فاحمرت وجنتاها خجلًا." أو "رأى الماء إلهه فاحمرت صفحته." في تلخيص لمعجزة الماء الذي حوله السيد المسيح إلى خمر في عرس (قانا).

(53) . الهاوري ثوب ياباني تقليدي من الحرير اللامع يُلبس في المناسبات الرسمية فوق الكيمونو، وهو أشبه برداء فضفاض يصل إلى

الوركين، وله أكمام واسعة ونقوش مميزة.

(54) تدهن عصي شباك صيد الطيور بمادة لاصقة. ويشير البيت إلى أن الفراشة تلصق نفسها بالعصا لمنع الصياد من استخدامها، وكذلك لتحذير الطير من خطرها. وفي البيت تلاعب بالكلمات أيضًا، فكلمة (Jama suru) تعني العرقلة والمنع في الآن ذاته.

(55) يتحرك جناحا الفراشة أحيانًا أثناء نومها، فتبدو كأنما تحلم بالطيران.

(56) إ شارة للمثل البوذي "Rakkwa éda ni kaërazu; ha-kyō futatabi terasazu." ، ومعناه "لا تعود الزهرة الساقطة إلى الغصن، ولا سبيل لإصلاح المرآة المكسورة."

(57) يقول المثل الياباني القديم ما معناه أن الشيطان ذاته يبدو جميلًا في عمر الثمانية عشر. وتعني الأبيات أن سحر حركة الفراشات تذكر الرائي بالآنسات الشابات ذوات الثياب الأنيقة والأكمام المتطايرة.

(58) كتب الشاعر (عيسى) هذه الأبيات بعد طلاقه لزوجته.

وللأبيات ترجمة أخرى: "تنشدين سعادة بيننا؟ ربما نجدها إذا بعثنا على هيئة فراشتين في حياتنا التالية!"

(59) بمعنى: ليت لي قلبًا يسعد بصغائر الأشياء كقلب طفل سعيد.

(60) مينو: البرقة، أو معطف القش الذي يرتديه الفلاحون اليابانيون.

(61) جمع مصفار، وهي آلة نفخية تعرب أيضًا باسم (بان فلوت).

(62) Filial piety أو الوفاء الأبوي هو أحد القيم الأساسية في الفلسفة الكونفوشيوسية. ويشير إلى وجوب احترام الوالدين والأجداد وإطاعتهم ورعايتهم، وهو مفهوم يعزز العلاقة بين الأجيال ويعلي من شأن التواصل والاحترام بين أفراد الأسرة.

(63) ملحوظة مثيرة للاهتمام: كلمة (آري) التي تعني النمل باليابانية يعبر عنها برمز مكون من جذرين: جذر بمعنى حشرة، والآخر (وينطق غيري) يعني الانضباط أو الاستقامة، لذا فمعنى اسم النمل حسب الرموز: الحشرة المنضبطة.

(64) 65 مصطلح يشير إلى مجموعة أسطورية من النساء المحاربات في الثقافات القديمة. وتشتهر الأمازونات في الأساطير اليونانية بأنهن مجموعة من النساء تعيش في مجتمع مستقل وتمارسن القتال والحرب. ويعتقد أنهن كن قبائل محاربة تعيش في مناطق مثل الأمازون يحصر دورها في المشاركة في المعارك والغارات.